لغتنا الجميلة

فاروق شوشة

لغتنا الجميلة



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

لغتنا الجميلة

فاروق شوشة

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه الطبعة

لغتنا الجميلة

بقلم فاروق شوشة

هذه طبعة جديدة من كتاب «لغتنا الجميلة» تصدر ضمن مكتبة الأسرة، لتصبح متاحة للألوف المؤلفة من قراء هذه المكتبة، الذين تتسع دائرتهم عددا، وتتنوع قراءاتهم اهتمامات واختيارات، عاما بعد عام.

وقد كان صدور هذا الكتاب فى طبعته الأولى عام ١٩٧٣ تلبية لرغبة ألوف المستمعين للبرنامج اليومى لغتنا الجميلة الذى أكتبه وأقدمه من الإذاعة المصرية منذ أول سبتمبر عام ١٩٦٧ حتى اليوم، الذين رغبوا فى أن تتاح لهم فرصة الحصول على المادة المدونة لهذه الحلقات، لتكون بين أيديهم، وفى متناولهم، يعودون إليها بالنظر والتأمل كلما أرادوا.

وكان تحويل المادة الإذاعية المسموعة، إلى مادة منشورة فى كتاب يتطلب إعادة نظر وتصنيف لأن للكتاب شروطه ومواصفاته التى لا تتفق وطبيعة برنامج

إذاعى يومى، يقدم فى دقائق معدودة وتختلف طبيعة مادته من حلقة إلى أخرى ومن أسبوع إلى أسبوع، فما بالك أيها القارئ العزيز ونحن نتحدث عن حلقات بعمر هذه السنوات المتتابعة.

ولعلّى أؤكد فى مستهل هذا الكتاب، أن الهدف من اختيار هذه المادة الأدبية ـ شعرا ونثرا ـ وتقديمها لم يكن هدفا تعليميا، بل جماليا، يحرص على الإشارة إلى مواطن الجمال، وأحيانا يكتفى باللمح دون الإشارة إذا كان الأمر لا يحتاج إلى أكثر من ذلك بهدف تكوين ذائقة أدبية ولغوية تنمو بفضل المزيد من القراءة والاستماع والتأمل، وتكشف لصاحبها من تجليات الإبداع العربى عبر العصور فى تنويعاته ومجالاته المختلفة، وفى تفاعله الحى والخلاق مع إبداع الثقافات والآداب الأخرى.

ولكل الذين يحلو لهم أن يسألونى: أبعد كل هذه السنوات التى تجاوزت الثلاثين، مازلت تجد جديدا تضيفه إلى مكتبة البرنامج؟ أقول: إن كل ما قدمته فى حلقات البرنامج التى تجاوزت حتى الآن أحد عشر ألفا، ليس إلا قطرة واحدة من بحر حافل مترامى الأطراف، لا يمكن الإحاطة ـ حتى ببعضه ـ فى برنامج مهما امتد به الزمان.

ولاشك أنه يسعدنى الآن أن اسم «لغتنا الجميلة» قد أصبح شائعا متداولا على الألسنة والأقلام فى مصر وفى العالم العربى، وأن صفة الجمال قد أصبحت مقترنة بلغتنا العربية، فلا تكاد تذكر الآن حتى يقال: لغتنا الجميلة، بدلا من لغتنا العربية، وهو ما أعده نجاحا فى إثارة الاهتمام ـ على نطاق واسع ـ بما تمثله هذه اللغة فى جوانب إبداعها الثرىّ من قيم رفيعة للجمال، ومن مضامين حضارية وإنسانية، ومن تراث حرية فاعل ومتفاعل ومستمر، ومن وعاء لهذا الوجود العربى كله: إنسانا وتاريخا ومواقف واختيارات وإنجازات. أيضا، بما تحتاجه هذه اللغة الآن من جهد

عصرى دائب، ودراسات عميقة شاملة، يقوم بها العلماء والخبراء والدارسون والكاتبون والمترجمون والمؤدون، كل فى مجاله، لكى تدخل هذه اللغة ساحة القرن الحادى والعشرين، وعصر المعلومات، والحاسب الآلى، والتكنولوجيا، بخطى واثقة، وإمكانيات جديدة مختلفة، وأنظمة تساعدها على التعامل والتفاعل مع معطيات زمن جديد له مطالبه واحتياجاته، كما أن له تحدياته، خاصة مع لغات سبقنا أهلها إلى اللحاق بالعصر، وتبنى وسائله ومناهجه، فأتاحوا للغاتهم مزيدا من التطور والتأثير الواسع والسيطرة على مستقبلهم والتحكم فيه.

وهى أولاً وأخيراً مهمة المدرسة والجامعة، مهمة المجتمع وأجهزة الثقافة والإعلام، مهمتك أيها القارئ الذى يدخل إلى ساحة هذه اللغة التى نشرف نحن ـ أبناءها ـ بالانتماء إليها من باب الجمال، وباب التذوق، وباب النظر المتأمل والفكر الناقد والمتابعة المستنيرة.

وغاية ما يحققه هذا الكتاب، أن يكون حافزا لك للانتقال إلى الأصول: المصادر والمراجع، والبحث عن الكتب الأمهات: من دواوين شعرية، ومؤلفات نثرية وكتابات بلاغية ونقدية، لإكمال دائرة القراءة وإحكام عملية التذوق، وإشباع نهم لا ينتهى لأنه نهم القراءة والبحث والتأمل والاطلاع.

تقديم الطبعة الأولى

في سبتمبر عام ١٩٦٧ بدأ برنامج « لغتنا الجميلة » أولى حلقاته ، من البرنامج العام لاذاعة القاهرة ، وعبر ست سنوات متصلة ، هي عمر البرنامج حتى الآن ، تحققت له ملامحه وسماته ، واتضحت رسالته ، وازداد ارتباطه بالمتلقي رسوخا وفاعلية .

كان السؤال الأول المطروح أمام البرنامج هو : كيف يستطيع البرنامج — وهو يغوص وراء الدرر الكامنة في تراثنا العربي : شعره ونثره — ثم وهو يتابع حياتنا الجديدة الممتلئة بألوان التعبير الجميل ونماذجه ، أن يشدّ إليه اهتمام المستمع غير المتخصص ؟ كيف يستطيع أن يتجاوز هذه المساحة الضيقة التي تقف عندها — عادة — تلك البرامج المثقلة بالفكر والثقافة ، والتي ينحبس في إطارها عدد من ذوي الاهتمامات المتخصصة ، دون أن تنجح في جذب الاهتمام العام واثارة الوجدان العام ، الوجدان البسيط ، لدى مستمعينا الذين يشكلون دائما قطاعات شتى ، مختلطة ، ومتشابكة ، من أسرة المجتمع كله ؟

ولتحقيق هذا الهدف ، فقد اختط البرنامج لنفسه من البداية أسلوب الرحلة . لم يحرص على أن يكون دروسا تلقى ، بما للدروس دائماً من وطأة شديدة وثقل ظلّ ، ولا أن يكون ذا هدف تعليمي ، سرعان ما يُثبّط الهمم ، ويشعر المتلقين — من بين مستمعيه — أنهم دائما في وضع التلاميذ ، وأن عليهم

دائما أن يظلوا في هذا المكان لا يتجاوزونه .. بل ليس من حقهم أن يتجاوزوه، ولا أن يصبغ نفسه دائما بصبغة واحدة ، لا يُغيّرها ، أو جلد واحد يلبسه ولا ينزعه ، فالطابع المتجدد ، الدائم التغيّر والتحول ، أكثر مدعاة للحيوية والجدّة والطرافة ، وأعمق أثرا في النفس والقلب والعقل .

وأسلوب الرحلة ، هو أسلوب مَنْ يُنقّب ويختار ويتجاوز ، ولا يبقى دائما في محلّه ، أسلوب من يبحث عن الجمال أنى كان وحيثما وجده ، لا يعنيه الا أن يقطف من كل بستان ما يروق لعينيه وقلبه ، ولا يمكث إلا بقدر ما يتذوق ويتأمل ، ثم عليه أن يرحل ويكتشف ويغامر ، بحْثاً عن الجديد والطريف والأصيل ، وما أكثره في صفحات تراثنا العربي ، العامر بالكنوز .

ومن خلال العلاقة اليومية — المباشرة والحميمة — بين البرنامج ومستمعيه ، عبْر رسائلهم وتعليقاتهم ورغباتهم وردود أفعالهم ، تكشفت حقيقة أن قطاعات الاستماع تضم أذواقا عدّة ، وميولا غير متجانسة ، وثقافات شتى ، بل ومستويات متعددة من هذه الثقافات ، تتراوح بين الأميّ والمتخصص ، وقد يبدو غريبا أن يكون من بين مستمعي البرنامج أميّون ، ولكنها حقيقة تكشف عن الدور الهام والفعّال الذي تقوم به أجهزة الاتصال بالجماهير وفي مقدمتها الاذاعة في سد فراغ المدرسة ونقص الكتاب وغياب مؤسسات التعليم والثقافة بصورة عامة ، فضلا عن واقع الحال المتمثل في ارتفاع نسبة الأمية والأميين ، بصورة خطيرة وفاضحة ، في مجتمعنا ، الذي يشق طريقه مندفعا إلى عتبات القرن الحادي والعشرين .

غير أن هؤلاء الأميين — الذين لم تخْلُ وجداناتهم ومداركهم من ثقافة — لم يفتهم أن يتذوقوا ما يقدمه البرنامج بين الحين والحين ، ولا أن يتعرفوا على بعض مواطن الجمال وأسراره ، من خلال تلقّيهم لبعض نصوص شعرنا العربي — قديمه وحديثه — ، ومن خلال اللفتات التي يوجه بها البرنامج اهتمامه لأسرار الاعجاز والبلاغة في آيات من القرآن الكريم ونماذج من الحديث

الشريف ، وآثار البلغاء والفصحاء في تراثنا العربي .

لهذا كله ، لم يحرص البرنامج على إرضاء ذوق دون ذوق ، أو الاستجابة لذوق على حساب ذوق ، فالناس – في النهاية – جملة أذواق متباينة ، وإن كان يجمعهم في النهاية الالتقاء « على » أو « عند » الحقائق العليا ومنها الجمال ، تختلف الدروب إليه والمسالك ، ولكن القلوب والعقول والأذواق سرعان ما تلتقي عند الاعتراف به وتقديره والتجاوب معه .

لعل المشكلة الرئيسية في هذا المجال هي خلوُّ تراثنا العربي – على مدار أربعة عشر قرناً – من المختارات التي عُني أصحابها بالانتقاء والاختيار ، والتي تُقدِّمُ لنا عبر العصور نماذج لأذواق ، وألوانا من ثقافات وعقول ، وصوراً لاهتمامات كلِّ عصر ، وكلِّ من يحاول الاختيار أو التنقيب ، اللهم إلا نماذج محدودة وضئيلة من هذه المختارات أهمُّها : المفضليات للضبي ، والحماسة لأبي تمام ، والكشكول للعاملي ، وزهْر الآداب للحصري ، ومختارات البارودي وأخيرا ديوان الشعر العربي لأدونيس ، وهي لا تُشكِّل في مجموعها إسهاما حقيقيا في التعريف بكافة ألوان تراثنا العربي – شعره ونثره – ولا في الإرشاد إلى ينابيعه الأصيلة ، ودرره الكامنة .. ومن هنا ، كان من بين أهداف « لغتنا الجميلة » كبرنامج يخاطب المستمع ، ثم ككتاب يخاطب القارىء أن يسدَّ بعض جوانب هذا النقص الكبير الذي نستشعره كلما سئلنا عما يجب قراءته والاهتداء به أو البدء به في هذا الخضم الهائل الذي يُسمَّى تراثنا الأدبي ، وما أعظمه من تراث ! ، خاصة إذا جاء هذا السؤال من غير العرب ، الذين يحاولون الالمام – في صورة سريعة ولكنها دقيقة – بمسيرة أدبنا العربي : شعره ونثره ، عبر قرونه المتطاولة ، مع التعرف على أبرز أعلامه وأجمل نماذجه وأخلد صفحاته وأثمن كنوزه ..

* * *

وهذا الكتاب هو الحلقة الأولى من المختارات التي تضمُّها مكتبة البرنامج .

والتي تجمّعت من حصيلة حلقاته التي جاوزت حتى الآن الألفيْ حلقة ، روعي في تصنيفها وتبويبها ألا تخرج عن الطابع العام للحلقات ذاتها ، في بساطتها وتلقائيتها ، وتنوّعها وبُعْدها عن التعقيد أو التقعر ، وخلوها من طابع التعليم أو التوجيه ، كلّ ما حدث من إضافة ، هو إعطاء هذه الحلقات طابع الفصول المتناسقة ، كلّ منها يمثل إطارا بعينه ، وألواناً بذاتها ، وبحيث تعطي هـذه الفصول — في النهاية — صورةً واحدة متكاملة هي لغتنا الجميلة بين الماضي والحاضر ، بين القديم والجديد ، بين الجمال وأسرار البلاغة ، بين ثـورة الأسلوب وتجديد المجدّدين ، بين واقع هذه اللغة ومشكلاتها المعاصرة مع ألفاظ الحضارة — أي مفردات الحياة العامة ومسمّياتها — ومصطلحات العلوم ، بين صورتها الأولى المكتسبة بطابعيتْها الصحراوي والموسيقي ، وصورتهـا الحديثة المكتسبة بطابع المعاصرة والقدرة على الاتصال ، والاتساع لروح العصر ومنجزات الحضارة وحصاد حركة الترجمة والتفاعل مع اللغات الأجنبية ، أخْذاً وعطاء ، هضماً وتمثُّلاً ، غنى وكثافة ..

والعِبْرة التي نستخلصها — من هذا كله — ، أن لغتنا الجميلة ظلت عبر القرون الطويلة ، صامدة نابضة ، بفضل انفتاحها المستمر على الحضارات والثقافات ، واتجاهها الدائم إلى المستقبل ، وأنها كانت تفقد حيويتها وجدّتها ونبضها ، عندما يتوقف انفتاح أصحابها على الجديد الذي تزخر به حياتهم وينغلقون على أنفسهم مضْغاً واجترارا ، وعندما يصبح الماضي هو مثلهم الأعلى المقدس ، تتجه إليه رؤوسهم ، دون أن تتجه إلى حيث الهدف الطبيعي ، والغاية الأصيلة .. المستقبل !

فلنحاولْ دائماً أن نعي هذا الدرس الهام ، أن نقترب من تراثنا العظيم حبا وتذوقا وفهما وتأملا ، دون أن نقع في أسرْ عبادته وتقديسه والوقوف عند حدوده وأطره وآفاقه ، وإلاّ أصابنا الجمود والموْت والتخلف ، ولنحاول دائما أن نجتاز هذه المعادلة الصعبة بين التراث والمعاصرة ، نحب تراثنا ونتذوقه وندرسه ولكننا نتجاوزه ولا نُكرّره ، ونعيش بكل وجداناتنا وعقولنا في

روح العصر ولكن على ركائز ثابتة من التراث ، وبهذين الجناحين معا : التراث والمعاصرة ، يُحلّق الأديب العربي المعاصر في مجالات التعبير الأدبي : شعراً وقصة ورواية ومسرحية ، وتنبض لغتنا الجميلة بأصالة الحرف العربي ووعي الواقع الجديد والحساسية الجديدة والوجدان الجديد .

• • •

يبقى أن نوجه الشكر — صادقا وعميقا — إلى هؤلاء الأساتذة الرواد : الذين كانت كتبهم ودراساتهم وأبحاثهم ومقالاتهم خيرَ عون للبرنامج على النجاح والاستمرار ، وإلى هؤلاء الذين لم يدّخروا جهدا في تبني جهود البرنامج الدائبة سعياً نحو الأفضل — شكلا ومضمونا — وفي توجيهه إلى ما قد يكون سها عنه ، أو جانب الصواب فيه ، أو لم يتزوّد له بما ينبغي من زاد وعُدّة ..

وإني لأرجو أن يكون نشر هذه المختارات ، على هذه الصورة ، تحيةً وتقديرا للألوف من مستمعي البرنامج ، الذين أعلنوا عن رغبتهم — بأكثر من طريقة — في أن يُتاح لهم الحصول على نصوص حلقات البرنامج بين دفتي كتاب ، حتى يمكنهم معاودة تأملها والرجوع إليها واقتناؤها ، ولتصبح بعد ذلك تراثا عزيزا يتركه الآباء للأبناء .

القاهرة (١٩٧٣) فاروق شوشة

• • •

الفصل الاول

سطور مضيئة من تراثنا العربي



اعتزاز باللغة .. وحسن تعبير :

كان العرب شديدي الاعتزاز بلغتهم الجميلة ، حريصين كلَّ الحرص على تقديرها ووضعها في أكرمِ منزلةٍ وأحسن صورة . يتجلّى هذا الحرص والاعتزازُ في عنايتهم بجودة الإلقاء وحسن الحديث ، وفي نفورهم من كلّ عيبٍ يشوبُ النطقَ أو يُشوِّهُ التعبير ..

يقول سُويْد بن أبي كاهل – الشاعر الجاهلي – واصفاً حبيبته بحسن الحديث :

تُسمعُ الحُدَّاثَ قوْلاً حسنا لو أرادوا غيْرَهُ لم يُستمعْ

ويقول لَبيد – وهو أيضا شاعر جاهلي – :

كأنَّ الشَّمولَ خالطت في كلامها جنيّاً من الرمانِ رَطْباً وذابلا

(و « الشَّمول » هي الخمر الباردة ، ويقال إنها سميت بهذا الاسم لأنها تجمع شَمْلَ شاربيها أو لأنها تشتمل على العقل فتملكه وتذهب به) .

ومن الشعراء الذين أشاروا كثيرا إلى جمال الحديث وروعة الصوت الساحر الشاعر العباسي بشّار بن بُرْد .. يقول :

وكأنَّ رَخْصَ حديثِها قِطعُ الرياضِ كُسين زَهْرا
وكأنَّ تحت لسانِها هاروتَ ينفثُ فيه سِحْرا

ويقول :

وحديثٌ كأنه قِطعُ الرَّوْض وفيه الصفراءُ والحمراء

والطريف أنّ بشاراً — وهو الشاعر الضرير — يُصَوِّرُ الحديث الجميل وكأنه مشاهد منظورة .. وهي سِمةٌ نجدها دائما عند الأدباء والشعراء الموهوبين الذين حُرِموا نعمةَ الإبصار ولكنهم رُزقوا صفاء البصيرة ، فأصبحت الأذنُ لديهم وسيلةً للسمع والبصر معا ، وأصبح تركيزُهم الشديد — فيما يسمعون وفيما ينطقون به — على الجوانب الموسيقية في التعبير ، وجَرْسِها الأخّاذِ المؤثرِ ..

أو ليس بشّار هو القائل :

يا قومُ أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشقُ قبل العين أحيانا

* * *

كذلك كان العرب يُؤْثرون من القول ما جاء وجيزاً بليغا مُرَكَّزا .. ولذا نراهم يَنْفِرون من فُضول الكلام وحواشيه ، واشتهر عنهم قولهم : « خيرُ الكلام ما قلّ ودل » .

يقول شاعرهم :

تضعُ الحديثَ على مواضِعه وكلامُها من بَعْدِهِ نَزْرُ

ويقول آخر :

لها بَشَرةٌ مثلُ الحرير ومنطقٌ رخيمُ الحواشي ، لا هُراءٌ ولا هَذْرُ

إلى جانب هذا ، فقد كانوا يُحبّون في الرجل قوة الصوت ووضوحه وجهارته ، وفي المرأة رقته وفخامته .. ولذا مدحوا سعة الفم في الرجل وذمُّوا ضيقه ، ووصفوا الخطيب الواسع الشِّدْقين بالأشدق ، وعابوا التشدّق فيمن لم يُوهب اتساع الفم ورحابة الشِّدْقين .. يقول شاعرهم في ذم خطيب :

تشادقَ حتَّى مال بالقول شِدْقُه   وكلُّ خطيبٍ – لا أبا لك – أشدق

ويقـــول :

مَلِيءٌ ببهْـــرٍ والتفـــاتٍ وسَعْلةٍ   ومسحة عثنُونٍ وفتْلِ الأصابـــع

ويقول النَّمر بن توْلب :

أعِذْنِيَ ربِّ مـــن حَصَرٍ وعِيٍّ   ومن نفسٍ أعالجهـــا علاجـــا

والبهْر هو انقطاع النفس – في الكلام – من الإعياء ، والحَصَر : احتباسُه ، والعيّ : العجز عن الإبانة والوضوح . وكلها صفات مذمومة في المتحدث بله الخطيب !

لذلك كله لم يكن غريباً على من يتمدّحون بحسن الحديث وجودة الالقاء أن يعتبروا القدرة على التعبير والخطابة نصف الشخصية الحقيقية للإنسان . يقول شاعرهم :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده   فلم يَبْقَ إلاّ صورةُ اللَّحمِ والدم

* * *

نماذج من البلاغة الرفيعة عند العرب :

سئل ابن المقفع : ما البلاغة ؟

فقال : الإيجازُ من غير عجز ، والاطنابُ في غير خطَل .

وسئل عنها مرة أخرى ، فأجاب :

هي التي اذا سمعها الجاهل ظنّ أنه يحسن مثلها .

ومن الكلمات المأثورة لبعض الحكماء العرب ، وهي كلمات عامرة

بفنون البلاغة العربية القديمة ، وبديعها المتمثل في المقابلة والجناس :

الأماني أحلام المستيقظين ، المنيّة تضحك من الأمنية ، السلم سُلّم السلامة ، الرشوة رشاء الحاجة ، الليل يكفيك الجبان ونصف الشجاع ، البرايا أهداف البلايا ..

ويروون أن رجلا قال لعمر بن الخطاب — وهو أمير المؤمنين — :

والله ما تقضي بالعدل ؛ ولا تُعطي الجَزل .

فغضب عمر حتى عُرفَ ذلك في وجهه . فقال له رجل كان معه :

يا أمير المؤمنين ، ألم تسمع بقوله تعالى : « خُذ العفو ، وأمُرْ بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين » ، فهذا من الجاهلين .

فقال عمر : صدقْت .. والله لكأنها كانت نارا فأطفئت ..

ويقول محمد بن كعب : ثلاثٌ من كنّ فيه استكمل الايمان بالله :

إذا رضي لم يُدْخله رضاه في الباطل .. وإذا غضب لم يخرجه غضبهُ عن الحق ، واذا قدر لم يتناول ما ليس له .

وجاء رجل إلى سلمان قائلا ، يا عبدالله : أوصني ، قال : لا تغضب ، قال : لا أقدر ، قال : فإن غضبْتَ فأمسكْ لسانَك ويدَك .

* * *

وفي العلم والحث عليه تقول العرب :

— أول العلم : الصمت ، ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العملُ به ثم نَشْرهُ ..

— علّمْ علمك من يجهل ، وتعلّمْ ممن يعلم ما تجهل ، فإنك إذا فعلت علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

ويقول مُعاذُ بن جبل :

تعلّموا العلم ، فإن تعلّمه لله خشية ، وطلَبه عبادة ، ومُدارستَه تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبَذْلَهُ لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوَحْدة ، والصاحب في الخلوة ، والدَّليلُ على التدين ، والمُصبِّر على السرّاء والضرّاء ، والوزير عند الاخلاء والقريب عند الغرباء ..

ويقول ابن المبارك : عجبت لمن لم يطلب العلم : كيف تتطلع نفسه إلى مكرمة !

ويقول أبو الدرداء : العالم والمتعلم شريكان في الخير .

* * *

وفي فضيلة حفظ السرّ وكتمانه ، والنهي عن إفشائه والافضاء به للآخرين يقول الرسول الكريم :

استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإنَّ كل ذي نعمة محسود .

ويقول : إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ، ولا يحلُّ لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره .

ويقول : إن من شر الناس عند الله وأخبثهم منزلة يوم القيامة : الرجل يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ينشر أحدهما سرَّ صاحبه .

ويروون أن العباس بن عبد المطلب قال لابنه عبدالله : إني أرى هذا الرجل — يقصد عمر بن الخطاب — يُقدّمك على الأشياخ — أي كبار الصحابة — فاحفظْ عنّي خمْساً :

لا تُفشينَّ له سرّا ، ولا تغتابنَّ عنده أحداً ، ولا يجرين عليك كذبا ، ولا تعصينَّ له أمرا ، ولا يطلّعن منك على خيانه ..

فقال عبدالله : واللهْ إنَّ كل كلمةٍ من هذه الخمس خير من ألف !

وذات يوم أسرَّ معاوية بن أبي سفيان إلى الوليد بن عتبة حديثا ، فقال الوليد

لأبيه ، يا أبت ، إنّ أمير المؤمنين أسرَّ إليّ حديثا ، وما أراه يطوي عنك ما يسمعه لغيرك ..

فقال له أبوه : فلا تُحدّثني به ، فإنّ من كتم سره كان الخيار له . قال : يا أبت ، وإنّ هذا ليدخل بين الرجل وابنه ؟ قال : لا والله يا بُنيّ .. ولكني أحب ألا تذلل لسانك بأحاديث السرّ .

ثم جاء الوليد إلى معاوية فأخبره بما حدث بينه وبين أبيه ، فقال له معاوية : أعتقك أبوك من رقّ الخطأ فإفشاء السرّ خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضْرارٌ ، ولوم إن لم يكن فيه إضرار .

ومن وصايا الأقدمين :

— انفردْ بسرّك ولا تُودعه مازحا فيزلّ ، ولا جاهلا فيخون .

— سرُّك من دمك .. فإذا تكلّمْتَ به فقد أرَقْتَهُ .

ويقول الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرِّ نفسه فصدرُ الذي يُستَودعُ السرَّ أضيق

ويقول علي بن أبي طالب : سرُّك أسيرُك ، فإنْ تكلّمْتَ به صرْتَ أسيرَه .

ويقول حكيمٌ لابنه : يا بُنيّ .. كنْ جواداً بالمال في موضع الحق ، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلْق ، فإنّ جود المرء الانفاق في وجه البرّ والبخل بمكتوم السر ..

ويقول آخر : ليس كل من كان على الأموال أمينا ، كان على الأسرار مؤتمنا . والعفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار .

وقيل لأعرابي : كيف كتمانك السرّ ؟

قال : قلبي قبره ، وصدري جسمه .

وقال رجل لصديقه : اكتم سري الذي أفشيته لك .

فقال : كلاَّ ... لا أبيتُ أشغل قلبي بنجواك ، ولا أجعل صدري خزانةً لشكواك ، فيقلقني ما أقلقك ، ويؤرّقني ما أرّقك ، فتبيت بإفشائه مستريحا ، ويبيت بحرّه قلبي جريحا .

وقيل : أصبَرُ الناس من صبَرَ على كتمان سرّه .

* * *

ويقول الجاحظ : رأيت رجلا يروح ويغدو في حوائج الناس ، فقلت له : لقد أتعبْتَ بذلك بدنك ، فمالك راحة ولا قرار ، فلو اقتصدْتَ بعض الاقتصاد. فقال الرجل : سمعتُ تغريد الأطيار ، وغناء القيان ، فما طربتُ لشيء منها طربي لنغمة شاكر أوليْتُهُ معروفاً ، أو سعيتُ له في حاجة .

أفتلومني بعد ذلك على غُدوّي ورَواحي فيما تطرب به نفسي ؟

فقلت له : لا لومَ عليك ولا تثْريب .

* * *

وذات يوم ، اجتمع الشعراء بباب الخليفة العباسي : المعتصم ، فبعث إليهم يقول : من كان منكم يُحسن أن يقول مثلَ قول أبي منصور النُّميْري في أمير المؤمنين الرشيد :

إنَّ المكارم والمعروفَ أوديةٌ ... أحلّكَ اللهُ منها حيثُ تجتمعُ
من لم يكنْ بأميرِ الله مُعتصماً ... فليس بالصلواتِ الخمسِ ينتفعُ
إذا رفعْتَ امرءًا ، فاللهُ رافعُه ... ومن وضعْتَ من الأقوامِ يتّضعُ
إن تُخلِفِ المُزْنُ ، لم تُخلفْ أناملهُ ... أو ضاق أمرٌ ذكرناهُ فيتّسعُ

من كان منكم يُحسنُ أن يقول مثلَ هذا القول — فليدخل !

فقال محمد بن وهب : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثــةٌ تشرقُ الدنيــا ببهجتهم   شمسُ الضحى وأبو إسحاقَ والقمر
يحكي أفاعيلَهُ في كُلّ نائبــةٍ   الغيثُ والليثُ والصّمصامةُ الذّكرُ

فأمر المعتصم بإدخاله وأحسنَ صِلتَهُ

ويقولون إن ابن هانىء الأندلسي أخذ معنى البيت الأول من بيتيْ محمد ابن وهب فصاغه على هذه الصورة :

المُدْنَفانِ مــن البريّةِ كُلّها   قلبي وطرْفٌ بابــليٌّ أحــورُ
والمُشرقاتُ النيّراتُ ثلاثــةٌ   الشمسُ والقمر المنيرُ وجعفــر

أما بيت ابن هانىء الأول ، فهو مأخوذٌ من قول ابن الرومي :

يــا عليلاً جعل العلّةَ مفتاحــاً لسُقْمي
ليس في الأرض عليلٌ غير جفنيْكَ وجسمي

وجاء في كتاب « الصداقة والصديق » لأبي حيان التوحيدي :

يقول أبو حامد :

والله إنّ عداوة العاقل لألذُّ وأحلى من صداقة الجاهل ، لأنّ الصديق الجاهل يُدلُّ عليْكَ بصداقته ، ويُصليك بحرّ جهله ، والعدو العاقل يتحايل بعداوته ، ويُهدي إليكَ فضل عقله ورأيه ، ومن نكد صداقة الجاهل أنك لا تستطيع مُكاشفتَهُ حياءً منه ، وإيثاراً للرعاية عليه ، ومن فضل عداوة العاقل أنك تقدر على مغالبته بكلّ ما يكون منه إليك .

وقيل لروْح بن زنباع : ما معنى الصديق ؟

قال : لفظٌ .. بلا معنى .

وأنشد هلال بن العلاء :

لما عفوتُ ، ولم أحقدْ عــلى أحــدٍ   أرحتُ نفسيَ من غــمّ العداواتِ

إنيّ أحيي عدوّي عنـد رُؤيتـه لأدفـعَ الشرَّ عنّي بـالتحيـاتِ
وأظهـرُ البِشْرَ للانسانِ أبغضـه كأنه قد مـلا قلبي محبّـاتِ
والناسُ داءٌ ، وداء الناس قربهمو وفي الجفا لهمو قَطْـعُ الأخُوّات
فلستُ أسلمُ ممّنْ لستُ أعرفـه فكيف أَسْلَمُ من أهلِ المودّاتِ
أَلقَى العدوَّ بوجـهٍ لا قُطوبَ بـه يكاد يقطرُ من مـاء البشاشاتِ
وأحزمُ الناس مـن يلقَى أعاديَهُ في جسمِ حقدٍ وثوبٍ من مودّاتِ

ويقول الشعبي :

تعايش الناس بالدين زمانا حتى ذهب الدين، ثم تعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعايشوا بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة ، وسيتعايشون بالجهالة زمانا طويلا .

ويروون أن رجلاً قرع باب بعضِ السّلف في ليْل ، فقال لجاريته : أبصري من القارع .

فأتت الباب فقالت : من ذا ؟

قال : أنا صديق مولاك ..

فقال الرجل : قولي له والله إنه لصديق .

ثم نهض وبيده سيف وكيسٌ ، يسوق جاريته . وفتح الباب قائلا : ما شأنك ؟

قال : واعني أمرٌ ..

قال : لا بك ما ساءك (وهو دعاء له بأن يُبعدَ الله عنهُ كلَّ سوء) فإني قد قَسَمْتُ أمرك بين صديقٍ فهذا هو المال ، وبين عدو فهذا هو السيف أو مشوقٍ فهذه هي الجارية .

فقال الرجل : لله أنت ! والله ما رأيت مثلك .

ويقول الأحنف : إياكَ وقُرناءَ السوء ، فانك إن عملت : قالوا : رآيت ، وإن قصّرْت قالوا : أثمت ، وإن بكيْت قالوا شهرت ، وان ضحكت قالوا : جهلت ، وان نطقت قالوا : تكلفت ، وان سكت قالوا : عييت ، وإن تواضعت قالوا : افتقرت ، وإن أنفقت قالوا : أسرفت وإن اقتصدت قالوا : بخلت .

وجاء في « كليلة ودمنة » : صحبةُ الأخيار تورثُ الخيْر ، وصحبة الأشرار تُورث الشرّ ، كالريح إذا مرّت على التبن حملت تبنا ، وإذا مرّت على الطيب حملت طيباً .

* * *

ومن أجمل ما نطقت به العربُ من حكمةٍ وأمثال كلمات تقول :

- حسبُكَ من شرٍّ سماعهُ .
- رُبَّ أخٍ لك لم تلدْهُ أمك .
- ذكاءُ المرء محسوبٌ عليه .
- صغيرُ الشرّ يوشك أن يكبر .
- ظاهر العتاب خيرٌ من باطن الحقد .
- لسان الجاهل مفتاح حتفه .
- من قال ما لا ينبغي ، سمع ما لا يشتهي .
- أنفُكَ منك وإنْ كانَ أجدع ، وساعدك منك وإنْ كان أقطع .
- بجيرانها .. تغلو الديار وترخص .
- صديقُكَ من صَدَقَكَ .. لا من صدّقك .

ويقول السيوطي :

علامةُ حسن الخلق عشرة أشياء :

قلّةُ الخلاف ، وحسنُ الإنصاف ، وترك طلب العثرات ، وتحسين ما

يبدو من السيئات ، والتماس المعذرة ، واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس ، والتفرّدُ بمعرفة عيوب النفس دون عيوب الغير ، ولطافة الوجه للكبير والصغير ، ولطف الكلام لمن هو دونه أو فوقه .

ثم يقول : وللجليس عليك ثلاثة حقوق :

إذا دنا رحّبْتَ به ، وإذا جلس وسّعْتَ له ، وإذا تحدّث أقبلت عليه ..

ومن أشهر الخطب البليغة المروية عن العرب القدماء خطبة لقسِّ بن ساعدةَ الأيادي – وكان يضربُ به المثل في الفصاحة إبّان العصر الجاهلي – والطريف أن هذه الخطبة تشفُّ عن رؤية لدين جديد سوف يُظلُّ العرب ، ونبي جديد سوف يقودهم إلى نور الهداية . يقول قسّ :

يأيها الناس اسمعوا وعوا .. وإذا وعيتّم شيئاً فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ ما هو آت آت ، مطر ونبات وأرزاق ، وأقوات وآباء وأمهات ، جمعٌ وأشتات ، وآيات بعد آيات ، إنَّ في السماء لخبراً ، وإنَّ في الأرض لعبرا ، ليلٌ داجٍ وسماء ذاتُ أبراج ، وأرضٌ ذات فِجاج ، وبحارٌ ذات أمواج ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعو ن ، أرضَوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ، أقسمُ قسماً حقّاً ، لا حانثاً فيه ولا آثماً ، إنَّ لله دينا هو أحبُّ إليكم من دينكم الذي أنتم عليه ، ونبيّاً قد حان حينُه وأظلكم أوانُه وأدرككم إبّانهُ ، فطوبى لمن أدركه فآمن به وهداه ، وويل لمن خالفه وعصـــاه .

ثم يقول :

فـي الـذاهبينَ الأوّلـينَ	من القـرون لنـا بصائـر
لمـا رأيـتُ مـوارداً	للموت ليس لهـا مصادر
ورأيت قـوميَ نحوهـا	يمـضي الأصاغرُ والأكابر
لا يرجـعُ الماضـي إليَّ	ولا مـن الباقـين غابـر

أيقنتُ أنيَّ لا محالـةَ   حيث صار القـومُ صائر

* * *

وعن « القلم » يقول ابن المعتز :

الكتاب والجُ الأبواب ، جريءٌ على الحجاب ، مُفهمٌ لا يفهم ، وناطقٌ لا يتكلم ، به يشخص المشتاق إذا أقعده الفراق ، والقلمُ مجهزٌ لجيوش الكلام ، يخدمُ الارادةَ ولا يملُّ الاستزادة ، ويسكتُ واقفاً وينطق سائراً ، على أرضٍ بياضها مظلم ، وسوادها مضيء ، وكأنه يُقبِّلُ بساطَ سلطانٍ ، أو يفتح نوّار بستان .

ثم يقدم هذه الصورة الشعرية الجميلة وهو يصف قلم القاسم بن عبيد الله :

قلمٌ ما أراهُ ، أم فلَكٌ يجري بما شاءَ قاسمٌ ويسيرُ
خاشعٌ في يديه يلثمُ قرطاساً ، كما قبَّلَ البساطَ شكورُ
ولطيفُ المعنى جليلٌ نحيف ، وكبيرُ الأفعال وهو صغيرُ
كمْ منايا ، وكمْ عطايا ، وكم حتْفٍ وعيْشٍ تضمُّ تلك السطورُ
نقشتْ بالدُّجى نهاراً ، فما أدري أخطٌّ فيهنَّ أم تصويرُ

ويقول بعض البلغاء :

صورةُ الخطّ في الأبصار سوادٌ وفي البصائر بياض

ويقول أبو الطيب المتنبي :

دعاني إليكَ العِلْمُ والحِلْمُ والحجا
وهذا الكلامُ النَّظْمُ والنائلُ النَّثْرُ
وما قلتُ من شعرٍ ، تكاد بيوته
اذا كُتبت يبيضُّ من نورها الحِبْرُ

ثم يُقَدِّمُ لنا ابن المعتز صورةً شعرية أخرى ، اختصَّ بها صديقَه عبيْد الله بن سليمان بن وهب ، يقول فيها :

عليمٌ بأعقاب الأمور ، كـــأنــه
بمختلســاتِ الظنِّ يسمعُ أو يرى
إذا أخــذَ القرطاسَ، خِلْتَ يمينَه
تُفتِّح نُوراً ، أو تُنظِّمُ جوهــرا

ويروون أن صاحب سيْفٍ فاخر صاحب قلم ، فقال صاحبُ القلم :

أنا أقتلُ بلا غَرَرْ ، وأنت تقتلُ على خطر

فقال صاحب السيف :

القلمُ خادم السيف ، إن تمَّ مُراده ، وإلاَّ فإلى السيف معادُه .. أما سمعت قول أبي تمام :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتــب
في حدِّهِ الحــدُّ بين الجدِّ واللعــبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائفِ ،في
مُتونهِنَّ جلاءُ الشكِّ والرِّيــبِ

وقول المتنبي :

ما زلتُ أضحكُ إبْلي ، كلما نظَرتْ
إلى من اختضبتْ أخفافُها بــــدمِ
أُسيرُها بين أصنامٍ أشاهدهـــــا
ولا أشاهدُ فيهــا عِفّــةَ الصَّنَــمِ
حتى رجعْتُ وأقلامي قوائل لي :
المجدُ للسيف ، ليس المجدُ للقلمِ

اكتبْ بنا أبداً بعدَ الكتابِ بـه
فإنّما نحنُ للأسيافِ كالخدمِ

أما أبو الفتح البُستي فيرى للقلم شأناً أرفع ومنزلةً أعلى ، يقول :

إذا أقسمَ الأبطالُ يوماً بسيفهم
وعدّوهُ مما يُكسبُ المجدَ والكرمْ
كفى قلمَ الكتّابِ مجداً ورفعةً
مدى الدهرِ ، أنّ الله أقسمَ بالقلمْ

• • •

أوصى حكيمٌ عربيٌّ صديقاً له أراد سفرا فقال :

إنّك تدخلُ بلداً لا تعرفُه ولا يعرفُك أهله ، فتمسّكْ بوصيتي تُكتبْ لك السلامة :

عليكَ بحسن الشمائل .. فإنّها تدلُّ على الحرية ، ونقاء الأطراف ، فإنه يشهدُ بكرم المنبت والمحتد ، ونظافة البزّة فإنها تنبيء عن النشء في النعمة ، وطيب الرائحة فإنها تظهرُ المروءة ، والأدب الجميل فإنه يُكسبُ المحبّة ، وليكن عقلُك دون دينك ، وقولُك دون فعلك ، ولباسك دون قدْرك ، والزمْ الحياءَ والأنفة ، فإنّك إنْ استحييْتَ من الغضاضة اجتنبْتَ الخساسة ، وإنْ أنفتَ من الغلبةِ لم يتقدّمْكَ نظيرٌ في مرتبة .

وأوصت أعرابيةٌ ابنَها في سفرٍ فقالت :

يا بُنيَّ ، إنك تجاورُ الغرباء ، وترحلُ عن الأصدقاء ، ولعلّك لا تلقى غير الأعداء ، فخالطِ الناس بجميل البِشر ، واتّقِ الله في العلانية والسرّ .

• • •

ويقول الجاحظ :

قال أبو القاسم المسعودي لعيسى بن موسى :

أيها الأمير : ما انتفعتُ بك منذ عرفتك ، ولا إلى خيرٍ وصلتُ منك منذ صحبتك ..

فقال : ولم ؟ ألم أكلّم لك أمير المؤمنين في كذا وكذا ؟ قال أبو القاسم : بلى .. فهل استنجزْتَ ما وعدْت ، وعاودْتَ ما ابتدأت ؟

فقال عيسى : حالت دون ذلك أمورٌ قاطعة وأحوال عاذرة ..

قال أبو القاسم : فما زدْتَ أيها الأمير على أن نبّهْتَ الهمَّ من رقْدته ، وأثرْتَ الحزن من ربْضته .. إنّ الوعد إذا لم يصحبْه إنجازٌ يُحققه ، كان كلفظٍ لا معنى له ، وجسم لا روح فيه .

وكلّم منصور بن زياد يحيى بن خالد في حاجةٍ لرجل ، فقال : عِدْهُ قضاءها ..

فقال يحيى : أصلحك اللهُ . وما يدعوك إلى العدة مع وُجود القدرة ..

فقال منصور : هذا قولُ من لا يعرف موضعَ الصنائع من القلوب ، إنّ الحاجة إذا لم يتقدّمْها موعدٌ ينتظرُ به نُجْحُها لم تتجاذب الأنفسُ سرورها ، إنّ الوعد تذ[illegible]م والانجاز إطعام ، وليس من فاجأه طعامٌ كمن وجد رائحته ، وتمطّقَ به [illegible] طعمه ، ثم طعِمه .. فدع الحاجة تُختم بالوعد ليكون بها عند المصطنع حُـ[illegible]ـوقع ولطفُ محلّ ..

* * *

ويقول علي بن أبي طالب :

أعجبُ ما في الانسان قلبُه ، وله موادّ من الحكمة ، وأضدادٌ من خلافها ، فإن سنح له الرجاء أذلّه الطمع ، وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص ، وإنّ

ملكه اليأس قتلـه الأسف ، وان عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ ، وإنْ أسعد بالرّضا نسي التحفظ ، وإنْ أتاه الخوف شغـله الحـذرُ ، وانْ اتسع له الأمن استلبتْـه الغـِرَّة ، وأن أصابته مصيبةٌ فضحه الجزع ، وإنْ استفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإنّ عضتّه فاقةٌ بلغ به البلاء ، وان جهد به الجوع قعد به الضعف ، وانْ أفرط في الشبع كظتّـهُ البِطْنة ، فكلُّ تقصيرٍ به مُضرّ ، وكلُّ إفراطٍ له قاتل !

* * *

ويقول حكماء العرب :

– باحتمال المؤن يُبْنى السؤدد ، وبالافضال تعظمُ الأخطار ، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال .

– إذا كان الرأي عنْدَ من لا يُقبلُ منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ؛ والمال عند من لا ينفقه ، فقد ضاعت الأمور

ويقولون :

– على الحاكم أن يعمَل بثلاث خصال : تأخيرُ العقوبة في سلطان الغضب ، وتعجيل مكافأة المحسن ، والأناةُ فيما يحدث . فإنَّ له في تأخير العقوبة إمكانَ العفْو ، وفي تعجيل المكافأة بالاحسان المسارعَة بالطاعة من الرعية والجند ، وفي الأناة انفساح الرأي واتضاح الصواب .

يُستدلُّ على تقوى المرء بثلاث : التوكّلُ فيما لم ينَلْ ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر عما فات .

– من جهل قَدْرَ نفسه فهو لقدْر غيره أجهل ، من أنف من عمل نفْسـه اضطُر إلى عمل غيره ، ومن استنكف من أبويـْه ، فقد انتفى من الرشاد ، ومن لم يتّـضعْ عند نفْسِه لم يرتفعْ عند غيره .

ويقولون :

يجبُ على العاقل من حق الله – عزّ وجل – : التعظيم والشكر ، ومن حق السلطان الطاعة والنصيحة ، ومن حقّه على نفسه الاجتهادُ في الخيرات ، واجتناب السيئات ، ومن حقّ الخُلطاء الوفاء بالودّ والبذل للمعونة ، ومن حقّ العامة : كفُّ الأذى وبذلُ الندىَ وحُسْنُ المعاشرة .

* * *

ويقول الأصمعي :

سمعتُ أعرابياً يدعو ويقول :

اللهم ارزقني عمل الخائفين ، وخوْفَ العاملين ، حتى أتنعَّمَ بترك التنعم رجاءً لما وعدت وخوفاً مما أوعدت .

ويقول بعض الحكماء :

الحِلْمُ عُدّةٌ للسفيه ، وجُنّةٌ من كيْدِ العدوّ، وإنّك لن تُقابلَ سفيها بالإعراض عن قوله إلا أذلَلْتَ نفسه ، وفلَلْتَ حدَّه ، وسلَلْتَ عليه سيوفاً من شواهد حِلمك عنه ، فتولَّوْا لك الانتقام منه .

ويقول آخر :

العجلةُ مكسبةٌ للمذمّة ، مَجلبةٌ للندامة ، مُنَفرةٌ لأهل الثقة ، مانعةٌ من سداد الرغبة .

ويقولون : إن الاخوان ثلاثة : أخٌ يُخلص لك المودة ، ويبلغ لك في مُهمّك جُهْدَه ، وأخٌ دوينه يقتصر بك على حسن نيّته دون رِفْده ومعونته ، وأخٌ يجاملك بلسانه ويشتغل عنك بشأنه ، ويُوسعك من كذبه وأيمانه .

ويقول إسحاق الموصلي :

وقَفتْ علينا أعرابية فقالت : يا قومُ ، تعثّر بنا الدهر إذْ قلّ منا الشكر ،

وفارقنا الغنى ، وحالفنا الفقر ، فرحم اللهُ امرءاً فهم بعقل ، وأعطى من فضل ، وواسى من كفاف ، وأعان على عفاف .

* * *

ويروون أنّ بعض أمراء العرب قال لحكيم من حكمائه : عِظْني بعظة تنفي عنّي الخيلاء وتُزهّدني في الدنيا .

فقال : فكّرْ في خَلْقك ، واذكرْ مبدأكَ ومصيرك ، فإذا فعلْتَ ذلك صغرت عندَك نفسُك ، وعظُم بصغرها عندها عقلُك ، فإنّ العقل أنفعهما لك عظماً ، والنفس أزينهُما لك صغراً .

قال الأمير : فإنْ كان شيءٌ يُعين على الأخلاق المحمودة فصفتُكَ هذه .

فقال الحكيم : صفتي دليلٌ ، وفهمُكَ محجّة ، والعلم علية ، والعمل مطيّة ، والإخلاص زمامهما ، فخذ لعقلك ما يزينه من العلم ، وللعلم ما يصونه من العمل ، وللعمل ما يحققه من الاخلاص ، وأنت أنت !

قال الأمير : صدَقْت .

* * *

ولقي أعرابيٌّ حكيماً فسأله ، كيف ترى الدهر ؟

قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدّدُ الآمال ، ويُقرّب المنيّة ، ويباعد الأمنية.

فسأله : وما حال أهله ؟

قال : من ظفر منهم لَغِب ، ومن فاته نصب ..

قال الأعرابيُّ : فما يغني عنه ؟

قال الحكيم : قطع الرجاء منه .

قال : فأيُّ الأصحاب أبَرُّ وأوفى ؟

قال : العمل الصالح والتقوى .

قال : أيهم أضرُّ وأردى ؟

قال : النفس والهوى .

قال : فأين المخرج ؟

قال : سلوكُ المنهج ..

قال : فما الجود ؟

قال : بذْلُ المجهود ، وتَرْكُ الراحة ، ومُداومة الفكرة .

قال الأعرابي : أوْصني .

فقال الحكيم : قد فعلت !

* * *

ويقول عاشق حكيم :

الناس ثلاثةُ أصناف : صِنفٌ منهم مضروبٌ بسوط المحبة ، مقتول بسيفِ لعشق ، مضطجعٌ على بابه ينتظر الكرامة .

وصِنفٌ منهم مضروبٌ بسوط التوبة ، مقتولٌ بسيف الندامة ، مضطجعٌ على بابه ينتظر العفو .

وصنفٌ منهم مضروبٌ بسوط الغفْلة ، مقتولٌ بسيف الشهوة ، مضطجعٌ على بابه ينتظر العقوبة .

* * *

ويروون أن العجّاج دخل يوماً على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان :

فقال له الخليفة : بلغني أنك لا تُحسن الهجاء !

فقال العجاج : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه خرابُ الأخبية ..

قال : فما يمنعك من ذلك ؟

قال العجاج : إنَّ لنا عزّاً يمنعنا من أن نُظْلَم ، وحِلْماً يمنعُنا من أن نَظْلِم ..

قال : لَكلماتُكَ أحسنُ من شِعْرك.. فما العزُّ الذي يمنعُك أن تُظْلَم ؟

قال العجاج : الأدب المُستطْرَفُ والطبع التالد .

قال الخليفة : لقد أصبحْتَ حكيماً !

قال العجاج : وما يمنعني من ذلك وأنا نجيُّ أمير المؤمنين .

* * *

ويقول بعض بني تميم :

حضرتُ مجلس الأحنف بن قيس وعنده قومٌ مجتمعون في أمرٍ لهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنَّ الكرم منع الحرم ، ما أقرب النقمة من أهل البغْي ، لا خيرَ في لذة تعقب ندماً . لم يهلك من اقتصد . ولم يفتقرْ من زهد . رُبَّ هزلٍ قد عاد جدّاً . احتملوا لمن أدلَّ عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر اليكم . أنصفْ من نفسك قبل أن يُنتصفَ منك .

ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد الود .

ثم أردف يقول :

لا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك على البذل ، واعلمْ أنَّ لك من دنياك ما أصلحت في مثواك ، فأنفق في حق ، ولا تكن خازنا لغيرك .

اعرف الحق لمن عرفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل .

اذا كان الغدرُ موجوداً في الناس فالثقةُ بكلّ أحدٍ عجز .

من أمن الزمانَ خانه ومن تعظّم عليه أهانه .

* * *

ويروون أن يحيي بن خالد أراد أن يضع من قدر عبد الملك بن صالح ـ إرضاءً للرشيد ـ

فقال له : يا عبد الملك .. بلغنى أنك حقود :

فقال عبد الملك : أيها الوزير .. إن كان الحقدُ هو بقاء الخير والشرّ ، إنهما لباقيان في قلبي .

فقال الرشيد : تالله ما رأيت أحداً احتجّ للحقد بأحسن مما احتجّ به عبد الملك .

وقد مدح الحقْدَ وافتنَّ في التعليل له الشاعر العباسي الشهير ابن الرومي ، بعد أن أخذ هذا المعنى من قول عبد الملك بن صالح وزاد فيه .. قائلاً لعائبٍ عابه :

لئن كنتُ في حفظي لما أنا مــودَعٌ
من الخير والشرّ انتحيت على عِرْضي

لما عــبْتَني إلاّ بفضــل إبانــة
وربّ أمرىء يزري على خُلق محْضِ

ولا عيبَ أن تُجزي القروض بمثلها
بل العَيْبُ أن تَدّان دَيْناً ولا تقضي

وخيرُ سجيّاتِ الرجــال سجيّــةٌ
توفّيك ما تسدي من القرض بالقرض

إذا الأرض أدّت رَيْعَ ما أنت زارع
من البذْر فيها فهي ناهيكَ من أرض

ولولا الحقُود المستكنّــات لم يكن
لينقُضَ وِتْراً آخرَ الدهرِ ذو نَقْض

وما الحقدُ إلاّ توأم الشكر في الفــتى
وبعض السجايا ينتهين إلى بعْــضِ

فحيثُ ترى حِقداً على ذي إســاءةٍ
فثمّ ترى شُكراً على حَسَنِ الفَرْضِ

* * *

ويروي مؤدّبُ عبد الملك بن صالح فيقول عنه :

قال لي عبد الملك بعد أن خصَّني وصيّرني وزيراً :

يا عبد الرحمن انظرْ في وجهي فأنا أعرفُ منك بنفسك ، ولا تستعدْ على ما يقبح ، دعْ كيف أصبح الأمير وكيف أمسى .. واجعلْ مكان التقريظ حُسْن الاستماع مني . وأعلمْ أن صواب الاستماع أحسنُ من صواب القول ، واذا حدثتُك حديثاً فلا يفوتنّك شيءٌ منه ، وأرني فهمَك في طرفك .. إني اتخذتُك مؤدِّباً بعد أن كنْتَ معلماً ، وجعلتك جليساً مُقرَّباً بعد أن كنت مع الصبيان مُبْعداً ، ومتى لم تعرف نُقصان ما خرجت منه ، لم تعرف رُجْحَان ما صرت اليه .

* * *

وساير الرشيد عبد الملك بن صالح ذات يوم ، فقال قائلٌ للرشيد :

يا أمير المؤمنين ، طأطىءْ من أشرافه ، واشددْ من شكائمه ، وإلاّ فسد عليك .

فقال الرشيد لعبد الملك : ما يقول هذا ؟

قال عبد الملك : هو حاسدُ نعمة ، ونافس رتبة ، أغضبه رضاك عني ،

وباعده قربك مني ، وأساءه إحسانُك إليّ .

فقال له الرشيد : انخفض القومُ وعلوْتَهم .. فتوقّدتْ في قلوبهم جمرة النار ..

فقال عبد الملك : أضرمها اللهُ بالتزيّد عندك .

فقال الرشيد : هذا لك وهذه لهم !

* * *

وصعد عبد الملك المنبر ذات يوم ، فأرتجَ عليه ، فقال :

أيها الناس : إنّ اللسان بضعةٌ من الانسان ، تكلُّ بكلاله اذا كلّ ، وتنفسح اذا ارتحل ، إنّ الكلام بعد الافحام كالإشراق بعد الاظلام .. وإنّا لانسكت حَصَراً ، ولا ننطق هَذراً ، بل نسكت مُفيدين وننطق مرشدين ، وبعد مقامنا مقام ، ووراء أيامنا أيام ، بها فصْلُ الخطاب ، وموقع الصواب ، وسأعودُ فأقول إن شاء الله تعالى .

* * *

جاء في كتاب « زهر الآداب وثمر الألباب » لأبي إسحاق الحُصْري القيرواني ،

قالوا : وكان الناس يتشوّقون إلى أوطانهم ، ولا يفهمون العلّة في ذلك حتى جاء ابن الرومي فقال :

ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعَــــهُ
وألاّ أرى غيري لهُ الدّهْرَ مالكــاً
عمرْتُ بهِ شَرْخَ الشبــابِ مُنعَّمــاً
بصحبةِ قومٍ ، أصبحوا في ظلالكا

وحببَ أوطانَ الرجالِ إليهمو

مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكروا أوطانَهم ذكّرتهمو

عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا

فقد ألفتْهُ النفسُ ، حتى كأنّه

لها جسدٌ إنْ بان غُودِرْتُ هالكا

ويقول عليٌّ بن عبد الكريم :

أتاني ابن الرومي بقصيدته هذه وقال : أنصفني وقل الحق ، أيهما أحسن ، قولي هذا في الوطن أو قول الأعرابي :

أحبُ بلادِ الله ما بين منعجٍ

إليّ ، وسلْمى أن يصوبَ سحابُها

بلادٌ بها نيطتْ عليّ تمائمي

وأوّلُ أرضٍ مسّ جلْدي تُرابُها

فقلت له : بل قولك أنت ، لأنه ذكر الوطن ومحبّته ، وأنت ذكرتَ العلّة التي أوجبت ذلك .

ويقول ابن الرومي أيضاً يتشوق إلى بغداد وقد طال مقامُه بسرّ من رأى :

بلد صحبتُ به الشبيبةَ والصِّبا

ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ

فاذا تمثّلَ في الضميرِ رأيتُه

وعليه أغصانُ الشبابِ تميدُ

ويقول الشاعر القديم :

ذكرْتُ بلادي فاستهلّتْ مدامعي
لشوقي إلى عهد الصبا المتقادمِ
حننْتُ إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربي
وقُطّعَ عنيْ قبل عقْد التمائمِ

وفي الحنين إلى مواطن الصبا يقول رجاءُ بن هارون :

أحنُّ إلى وادي الأراكِ صبابةً
لعهدِ الصّبا فيهِ وتذْكارِ أوّلي
كأن نسيمَ الريحِ في جنباته
نسيمُ حبيبٍ أو لقاءُ مؤمّلِ

والطريف أن المعنى الذي ابتدعه ابن الرومي في قوله عن الوطن :

فقد ألفتْهُ النفسُ حتى كأنّهُ
لها جسدٌ إنْ بان غودرت هالكا

هذا المعنى المبتكر في شعرنا العربي ، اختلسه شعراء كثيرون بعد ابن الرومي منهم عليّ بن محمد الإيادي الذي تصرّف فيه فأحسن التصرف وقال :

بالجِزْعِ فالخبْتينْ كانت لنا
ذات ليالٍ قد تولّتْ قصارْ
بانوا ، فما نمّتْ أسىً بعدهم
وإنما الناسُ نفوس الديار !

وفي رقة الحنين إلى الوطن يقول أعرابي :

أيا حبّذا نجداً وطيبَ ترابِه
تصافحُه أيدي الرياح الغرائبِ
عهودٌ لنا فيه ينازعُك الهوى
بذلك أتراب عِذابُ المشاربِ

تنــال المنى منهن في كلّ مشرب
عــذاب الثنايا باردات النوائــب

ويقول ابن ميادة مخاطباً الوليد بن يزيد :

ألا ليتَ شعري هل أبيتـنّ ليلـةً
بحرّة ليلي حيــث ربّتني أهــــلي
بلادٌ بها نيطتْ عــليّ تمائــمي
وقُطّعْنَ عــني حين أدركني عقلي
فإنْ كنتَ عن تلك المواطن مانعــي
فأقترْ عليّ الرزْقَ واجمعْ بها شمــلي

* * *

ويروون أنه لما حُملت قطرُ الندّى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون – والي مصر – إلى الخليفةِ العباسي : المعتضد ، كتب معها أبوها يذكر لها ما ترد عليه من أبّهة الخلافة وجلال الخليفة سائلاً إياه إيناسَها وبَسْطها .. فلما زُفّت إلى المعتضد بلغت من قلبه مبلغاً عظيماً ، وسُرّ بها غاية السرور ، وأمر وزيره أبا القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب بالجواب عن الكتاب ، فأراد أن يكتبه بخطه ، فسأله كاتبه أبو الحسين بن ثوابة أن يؤْثره بذلك ففعل وغاب أياماً وأتى بنسخة يقول في فصل منها : « وأما الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عنايةً بها وحياطةً لها ورعايةً لمودتك فيها » . ثم أقبل على الوزير أبي القاسم مُعجباً بحسن ما وقع له من الكلام قائلاً : إن تسميّي لها بالوديعة نصف البلاغة !

فقال له أبو القاسم : ما أقبح هذا ! تفاءلت لامرأة زُفّت إلى صاحبها بالوديعة ، والوديعةُ مستردة ! ثم قولك « من يمينك إلى شمالك » أقبح .. لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشّمال .. ولو قلت : « وأما الهدية ، فقد حسُن موقعها منّا ، وجلّ خطرُها عندنا . وهي وإنْ بعُدت عنك بمنزلة

ما قرُب منك ، لتفقّدنا لها ، وأنسنا بها ، ولسرورها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت إليه ، لكان أحسن » .

وبمناسبة الحديث عن قطر الندى ، يروون أنها كانت – بالإضافة إلى جمالها – موصوفة بكمال العقل ، خلا بها المعتضدُ يوماً للأنس في مجلسٍ لم يحضره غيرها ، حتى إذا غلبه الوسنُ ونام وضعت رأسه على وسادته ، وخرجت فجلست على باب المجلس في ساحة القصر .. واستيقظ المعتضد فلم يجدها إلى جواره ، فاستشاط غضبا ونادى بها فأجابته على قرب ، فقال : ما هذا ؟ استخليتُك إكراماً لك ، ودفعتُ إليك مُهجتي دون سائر حظاياي ، فتنصرفين عني وتضعين رأسي على وسادة ..

فقالت قطر الندى : يا أمير المؤمنين ، ما جهلتُ قَدْرَ ما أنعَمتَ به عليَّ ، وأحسنْتَ فيه إليّ . ولكن فيما أدّبني به أبي أن قال : لا تنامي بين الجلوس ، ولا تجلسي بين النيام ..

* * *

ويروون أن عمر بن الخطاب قال يوماً لبني عبس : كم كنتم يوم الهباءة ؟

– ويومُ الهباءة يومٌ من أيام العرب المشهورة كان النصر فيه لعبس على ذبيان – فقالوا : كنا مائة رجل كالذهب ، لم نكثُرْ فنتواكل ، ولم نقلَّ فنذلّ .

فقال عمر بن الخطاب : فكيف كنتم تقهرون من ناوأكم ولستم بأكثرَ منهم عدداً ولا مالاً ؟

قالوا : كنا نصبر بعد اللقاء هنيهة ..

قال : إذن قهرْتُم من ناوأكم ..

وقيل لعنترة العبسي : كم كُنتمْ يوم الفروق ؟

قال : كنا مائة رجل... لم نكثُر فنفشل ، ولم نقلّ فنذلّ .

* * *

ويقول عمرو بن العاص :

ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ، ولكنه الذي يعرف خيْرَ الشرّيْن.

وليس الواصل الذي يصل من يصله ، ولكنه الذي يصل من قطعه .

وليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع ، ولكنه الذي يحتال للأمر ألاّ يقع فيه .

ويقول أبو المعتمر :

الناس ثلاثة أصناف : أغنياء وفقراء وأوساط ..

فالفقراء موتى إلاّ مَنْ أغناه الله بعز القناعة ، والأغنياء سكارى إلاّ من عصمه الله بتوقع الغير ، وأكثرُ الخير مع أكثر الأوساط ، وأكثرُ الشرّ مع الفقراء والأغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى .

* * *

ومن أروع الرسائل التي أثرت عن القضاة في رسم وتدبير سياسة الدولة ، رسالةُ عالمٍ فاضل تولى قضاء البصرة في عهد « المهدي » أحد خلفاء بني العباس واسمه « عبد الله العنبري » ، فقد طالب هذا القاضي بأن يكون بجانب الخليفة مجلس من أهل الرأي يشاورون في الأمر ، وهو ينصّ في عبارته على أن يكون المجلس مُنتخباً ، وأن يكون مُمثّلاً لمختلف البلاد التي يمتد اليها حكم الخليفة .. يقول القاضي العنبري في رسالته :

إنْ رأى أمير المؤمنين أن يكون بحضرته قومٌ منتخبون من أهل الأمصار ، أهل صدق وعلم ، أولو حنكة وعقل وورع ، لما يردُ عليه من أمور الناس وأحكامهم فليفعل .. فإنّ أمير المؤمنين — وإنْ كان الله قد أنعم عليه وأفضل

بما أفاد من العلم — ترد عليه أمور هذه الدولة : شرقها وغربها ، دانيها وقاصيها ، فيشغلُه بعضُها عن بعض ، ففي ذلك عونٌ صدقٍ على ما هو فيه ، إنْ شاء الله . وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلّم ، والوحي ينزل عليه ، وهو خيرٌ وأبقى وأبرُّ ، وأعلمُ مِمّنْ سواه من الناس : «وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمْتَ فتوكَّلْ على الله ، إنَّ الله يُحبُّ المتوكلين » . وقال للقوم وهو يصف حسن أعمالهم : « وأمرهُم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

* * *

وعهد من طاهر بن الحسين إلى ابنه عبدالله في مناسبة تولّيه القضاء ، وهذا العهد من الوثائق التاريخية النادرة في تراثنا العربي لما يمتلىء به من قيم أدبية وعلمية واجتماعية ، من بين صفحاته هذه السطور :

« واعلمْ أنَّ القضاء من الله ، بالمكان الذي ليس مثله شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتُؤمَّن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ، ويؤدي حق الطاعة وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء . ثم يقول :

واشتدَّ في أمر الله وتورَّعْ عن النطف وامْض لاقامة الحدود ، وأقلل العجلة ، وابعد عن الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقرَّ جدك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه في صمتك ، واسدد في منطقك وأنصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة .. ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لوم لائم ..

واحمل الناس كلَّهم على مُرِّ الحق فإنَّ ذلك أجمعُ لألفتهم وألزم لرضى العامة ، واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنَّما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيّمهُم ، تأخذ منهم ما أعطوك ، من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه في قوامِ أمرهم وصلاحهم وتقويم أَوَدِهِمْ ،

فاستعمل عليهم ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف .

* * *

يقول الدكتور زكي مبارك في كتابه « العشاق الثلاثة » :

أجمع من ترجموا للعباس بن الأحنف على أن شعره كان أوفى الأشعار حظاً من الغناء ، وهذا هو المنتظر من حظ شاعر كانت أحاديثه المنثورة ألوانا من الألحان ، وله قصيد محظوظ في الغناء لكثرة ما فيه من الصنعة ، واشتراك المغنين في ألحانه وهو قصيد :

نام من أهدى لي الأرقا ... مستريحاً زادني قلقا
لو يبيتُ الناس كلهمو ... فسهادي بيّض الحدقا
كان لي قلبٌ أعيش به ... فاصطلى بالحبّ فاحترقا
أنا لم أرزقْ مودّتكمْ ... إنّما للعبدِ ما رُزقا

وهذا من الشعر المرقص ، وهو يشهدُ بأنّ العباس كان مفطورا على الغناء ..

وقد اتصل العباس بالرشيد فألفه الرشيد ، ودعاه إلى صحبته في خروجه إلى خراسان ، ثم خرج إلى ارمينية والعباس معه . فأنشده الأبيات الآتية ليستهديه السماح بالرجوع الى بغداد :

قالوا خراسانُ أقصى ما يراد بنا
ثم القفولُ فقد جئنا خراسانا
ما أقدرَ اللهَ أن يُدني على شحط
سكانَ دجلةَ من سكانِ جيحانا
مضى الذي كنتُ أرجوهُ وآملهُ
أما الذي كنتُ أخشاهُ فقد كانا

عينُ الزمانِ أصابتْنا ، فلا نظَرتْ
وعذّبتْنِيَــا صنُوفُ الهجرِ ألوانــا

فقال له الرشيد ، قد اشتقْتَ يا عباس !
ثم أذن له — خاصةً — بالرجوع ..

* * *

كان عديُّ بن أرطأة والياً من قِبَل عمر بن عبد العزيز ، ويروون أنه كتب إليه ذات مرة يقول :

« أما بعد : فإنّ أناساً قبلَنَا لا يُؤدُّون ما عليهم من الخِراجِ حتى يمسَّهم شيءٌ من العذاب »..

فكتب إليه عمر بن عبد العزيز يقول :

« أما بعد . فالعَجب كلُّ العَجب من استئذانك إيّايَ في عذاب البشر ، كأني جُنَّةٌ لك من عذاب الله ، وكأنَّ رضاي يُنجيك من سَخط الله . اذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك ما قِبَلَهُ عَفْواً وإلاّ فأحلفه ، فوالله لأن يلْقَوْا الله بجناياتِهم أحبُّ إلي من أن ألقاه بعذابهم والسلام .

* * *

ومن أجمل ما قيل في الشكر ولطيفِ عباراته وجميلِ مداخله بين الناس .. هذه المختارات :

— لو سكت الشاكرُ لنطقت المآثر

— لو صمت المُخاطب لأثنت الحقائب ، ولشهدت شواهد حاله على صدق مقاله .

— إنْ جحدت ما أولانيه ، وكفرت ما أعطانيه ، نطقت آثارُ أياديه عليَّ ولمعت أعلام عوارفه لديّ .

- الشكر ترجمان النية ، ولسان الطويّة وشاهدُ الاخلاص وعنوان الاختصاص .
- الشكر نسيم النعيم وهو السبب إلى الزيادة ، والطريق الى السعادة .
- الشكر قيد النعمة ، ومفتاح المزيد وثمن الجنة .
- من شكر قليلا ، استحقّ جزيلا
- شكرُ المولى هو الأولى .

* * *

قام الرسول الكريم بالخيْفِ من مِنىً ، فخطب فقال :

نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فأدّاها كما سمعها ، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غير فقيه ، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقه منه .

ثلاثٌ لا يُغلُّ عليهن قلب مؤمن : إخلاص العمل لله ، والنصيحةُ لولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائه .

* * *

ويروون أنه لما أدرك الخليفة الراشد أبو بكر الصديق دُنوَّ منيّته أرسل إلى عُمرَ بن الخطاب يستخلفه ، فقال له الناس من حوله : أتخلفُ علينا فظّاً غليظا لو قد ملكنا كان أفظَّ وأغلظ ؟ فماذا تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفْتَ علينا عمر ؟

قال الصديق : أتخوفونني بربي ؟ أقول : اللهم أمَّرْتُ عليهم خيْرَ أهلك .

ثم أرسل الى عمر يقول :

إني أوصيك بوصية إنْ حفظْتَها لم يكن شيء أحبّ إليك من الموت ، وهو مُدركُك ، وإنْ ضيّعْتَها لم يكن شيء أبغض إليك من الموت ولن تُعجزه . إنّ لله عليك حقا في الليل لا يقبله في النهار ، وحقّاً في النهار لا يقبله في الليل ،

وإنّه لا تُقبلُ نافلةٌ ، حتى تُؤدّى الفريضة . وإنما خفّتْ موازين من خفّتْ موازينه يوم القيامة باتّباعهم الباطل في الدنيا وخفّته عليهم ، وحُقّ لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا .. وانما ثقُلت موازينُ من ثقُلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا . فان أنت حفظت وصيّتي هذه ، فلا يكوننّ غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ولا بدّ لك منه ، وانْ أنت ضيعت وصيّتي هذه فلا يكوننّ غائب أبغضَ إليك من الموت ولن تُعجزَه .

ثم يقول الصديق :

يا ابن الخطاب : إنّي إنما استخلفتك نظراً لما خلفت ورائي ، وقد صحبت رسول الله - ﷺ - فرأيت من أثرتِه أنفسنا على نفسه ، وأهلنا على أهله ، حتى إن كنا لنظلّ نهدي إلى أهله من فضول ما يأتينا عنه ، وقد صحبْتني فرأيتني إنما اتبعت سبيل من كان قبلي - والله ما نمت فحلمت ، ولا توهّمت فسهوت ، وإنّي لعلى السبيل ما زُغْت ، وإنّ أول ما أحذّرُك يا عمر نفسك ، إنّ لكل نفس شهوة ، فاذا أعطيْتها تمادَتْ في غيرها .

* * *

ودخل رجل على الأفضل - أمير الجيوش بعد توليه منصبه ، فقال له واعظـا :

إنّ الأمر الذي أصبَحْتَ فيه من المُلْك ، إنما صار اليك بموت من كان قَبْلك ، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك ، فاتّقِ الله فيما حولك من أمور هذه الأمة ، فإنّ الله تعالى مسائلك عن النقير والقطمير .. ثم قال له :

فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم .

* * *

. ويروون أن رجلا قال لهارون الرشيد – الخليفة العباسي الشهير – وهو في طواف الحج :

أريد أن أكلمك بكلام فيه خشونة ، فاحتملْ .

فأجابه الرشيد :

لا .. ولا كرامة . فقد بعث الله من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مني فقـــال :

« فقولا له قولا ليّنا » .

(يشير هارون الرشيد بهذا إلى ذهاب موسى وأخيه هارون إلى فرعون وتوجيه العليّ القدير لهما : « اذهبا الى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى ».. سورة طه : الآيتان ٤٣ ، ٤٤) .

* * *

ومن خطبة للخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز :

أيها الناس ، إنكم لم تُخلقوا عبثا ، ولم تُتركوا سدىً ، وإنّ لكم معاداً يتولى الله فيه الحكم فيكم ، والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كلّ شيء ، وحُرِمَ الجنّةَ التي عرضها السموات والأرض .. واعلموا أن الأمانة غداً لمن حذر الله وخافه .. وباع قليلا بكثير ، ونافداً بباقٍ ، وخوفا بأمان .. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تردّوا إلى خير الوارثين .

ثم إنكم في كل يوم وليلة تُشيّعون غادياً إلى الله ، ورائحاً قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، ثم تضعونه في صدع من الأرض في بطن لحد ، ثم تدعونه غير مُوسَّد ولا ممهد ، قد خلع الأسلاب ، وفارق الأحباب ، ووجه للحساب ، غنيّا عماّ ترك فقيرا إلى ما قدم .

* *

ويقول الحسن بن علي :

الناس ثلاثة ، فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل
فأما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة
وأما نصف الرجل : فالذي له الرأي ولا يشاور
وأما الرجل الذي ليس رجل : فالذي لا رأي له ولا يشاور

* * *

ومن أقوال بعض الحكماء :

قيل إن العلم والمال والشرف اجتمعوا مرّة ، وحين أرادوا أن يفترقوا قال المال : إنني ذاهب يا إخواني فإذا أردتم أن تجدوني فابحثوا عني في ذلك القصر العظيم .

وقال العلم : أما أنا فابحثوا عني في تلك الجامعة الكبرى .

وظل الشرف ساكتا ، فسأله صاحباه : لماذا لا يجيب ؟

فقال : أما أنا فإنني إذا ذهبت ، فلن أعود .

* * *

ومن بين صفحات تراثنا العربي تطالعنا هذه الكلمات الوضيئة بالتعبير الرصين ، والحكمة البليغة والمنطق القديم :

قيل إن عثمان بن عفان دخل على عبدالله بن مسعود ، يعوده في مرضه الذي مات فيه ، فقال له : ما تشتكي ؟

قال : ذنوبي .

قال عثمان : فما تشتهي ؟

قال ابن مسعود : رحمة ربي

قال : أفلا ندعو لك بطبيب ؟

قال : الطبيب أمرضني ..

قال : أفلا نأمر لك بعطاء ؟

قال : منعتنيه وأنا محتاج اليه ، وتُعطينيه وأنا مستغنٍ عنه !

قال عثمان : يكون لبناتك من بعدك ..

فقال ابن مسعود : لا حاجة لهن به ، وقد تركتهن لخالقهن ، فهو عليم بأحوالهن .

* * *

وخطب علي بن أبي طالب ذات مرة فقال :

يا سبحان الله ما أزهد كثيرا من الناس في الخير ! عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كُنَّا لا نرجو جنة ولا نخاف نارا ولا ننتظر ثوابا ولا نخشى عقابا لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل النجاة .

فقام إليه رجل فقال : فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين ، أسمعته من رسول الله ﷺ ؟

قال : نعم .. وما هو خيرٌ منه .. لما أتينا بسبايا طيء كانت في النساء جارية حوراء العينين ، لعساء ، لمياء ، شماء الأنف ، معتدلة القامة .

فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت : لأطلبنها إلى رسول الله — ﷺ — ليجعلها من فيئي (أي من نصيبي) فلما تكلّمت أُنسيت جمالها لما سمعت من فصاحتهـــا .

قالت : يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت سيد قومي ، كان أبي يفكُّ العاني (أي الأسير المقيد) ويحمي الذمار ، ويَقْري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن

المكروب ، ويغيث الملهوف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طيء ..

فقال لها رسول الله ﷺ :

يا جارية ، هذه صفات المؤمن ، ولو كان أبوك إسلاميا لترحمنا عليه ، خلُّوا عنها فإنّ أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

* * *

وكتب الجاحظ إلى صديق له يستعطفه :

من عاقب فقد أخذ حظه ، وإنما الأجر في الآخرة ، وطيب الذكر في الدنيا على قدر الاحتمال وتجرع المرائر ، وأرجو ألا أضيع فيما بين كرمك وعقلك ، وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء في العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة . وان كان العفو عظيما مستطرفا من غيركم فهو تلاد فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون (أي ترجعون وتجبنون) ولا على سالف إحسانكم تندمون ، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمر بملأ من بني اسرائيل إلا أسمعوه شرّا وأسمعهم خيرا ..

فقال له شمعون الصفا (أحد أتباعه) : ما رأيت كاليوم ، كلما أسمعوك شرّا أسمعتهم خيرا !

فقال : كلّ امرىء ينفق ما عنده ، وليس عندي لكم إلا الخير ، ولا في أوعيتي لكم إلا الرحمة .. وكلّ إناء بالذي فيه ينضح ..

* * *

ويروون أن امرأة من العرب ــ من بنات ملوك اليمن ــ كانت ذات جمال وكمال ، وحسب ومال ، فأقسمت ألا تزوج نفسها إلا من كريم ، ولئن خطبها

غيُرُ كريم لتجدعنّ أنفه ، فتحاماها الناس حتى خرج إليها زيد الخيل وحاتم ابن عبدالله ، وأوس بن حارثة الطائيون ، فارتحلوا إليها .

فلما دخلوا عليها ، قالت ، مرحبا بكم ، ما كنتم زوارا ، فما الذي جاء بكم ؟ قالوا : جئنا زوارا خطابا ، قالت : أكفاء كرام ، ثم أنزلتهم وفرقت بينهم ، وأسبغت لهم العطاء ، وزادت فيه .

فلما كان اليوم الثاني بعثت إحدى جواريها متنكرة في زيٍّ سائلةٍ تستجدي وتتعرض لهم ، فرفع إليها زيد وأوس بعض ما حمل إلى كلّ واحدٍ منهما ، فلما صارت إلى حاتم دفع إليها جميع ما كان من نفقته ، وحمل إليها جميع ما حمل اليه .

فلما كان اليوم الثالث دخلوا عليها ، فقالت : ليصف كل واحد منكم نفسه في شعره ، فابتدر زيد وأنشأ يقول :

هلا سألتِ بني ذبيان : ما حسبي
عند الطعانِ إذا ما احمرَّتِ الحَدَقُ

والجار يعلم أنّي لست خاذله
إن ناب دهرٌ لعظم الجار مُعترقُ

هذا الثناء فإن ترضي فراضيةٌ
أو تسخطي ؛ فإلى مَنْ تُعطفُ العنقُ

...

إنك لتعلمين أنا أكرم أحسابا ، وأشهر أفعالا من أن نصف أنفسنا لك ، أنا الذي يقول فيه الشاعر :

إلى أوس بن حارثة بن لأم
ليقضي حاجتي ولقد قضاها

فما وطىء الحصى مثلُ ابن سعدى
ولا لبس النعال ولا احتذاها

أما حاتم فأنشأ يقول :

أماويّ إنّ المال غادٍ ورائحُ
ويبقى من المال الأحاديثُ والذِكْرُ
أماويّ إنّي لا أقول لسائل
إذا جاء يوماً : حلّ في مالنا النّزْرُ
أماويّ ما يُغني الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
وقد علم الأقوام لو أنّ حاتماً
أراد ثراء المال كان له وفرُ
أماويّ إنّ المال مال بذلته
فأوّله شكر وآخره ذكْرُ
ولا أظلم ابن العم إنْ كان إخوتي
شهوداً ، وقد أوْدى بإخوته الدهرُ
وما ضرّ جاراً يا ابنة القوم .. فاعلمي
ـ يجاورني ـ ألا يكون له سترُ
بعينيّ عن جارات قوميَ غفلةٌ
وفي السمعِ مني عن أحاديثها وَقْرُ

فقالت : أنت يا حاتم مرضي الأخلاق ، محمود الشيم ، كريم النفس ، وقد زوجتك نفسي ..

* * *

وتذاكر جماعة فيما بينهم آثار معن بن زائدة وأخبار كرمه ، معجبين بما

هو عليه من التؤدة ووفرة الحلم ولين الجانب ، وغالوا في ذلك كثيرا ، فقام أعرابي وأخذ على نفسه أن يغضبه ، فأنكروا عليه ذلك ، ووعدوه مائة بعير اذا هو استطاع ذلك .

فعمد الأعرابي إلى بعير فسلخه ، وارتدى بجلده ، واحتذى ببعضه — (أي جعله حذاء له) جاعلا باطنه ظاهرا ، ودخل عليه بصورته تلك ، وأنشأ يقـــول :

أتذكرُ إذ لحافك جلــدُ شاة
وإذْ نعلاكَ مـــن جِلْــدِ البعيرِ

قال معن : أذكره ولا أنساه ..

فقال الأعرابي :

فسبحان الذي أعطـــاك ملكـــا
وعلّمك الجلوسَ عـــلى السريرِ

فقال معن : إنّ الله يُعزُّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء ..

فقال الأعرابي :

فلستُ مُسلّماً إن عشتُ دهـــرا
عـــلى معـــنٍ بتسليم الأمـــيرِ

فقال معن : السلام خير ، وليس في تركه ضَيْر ..

فقال الأعرابي :

سأرحلُ عـــن بلادٍ أنت فيهـــا
ولـــو جار الزمانُ عـــلى الفقير

فقال معن : إنْ جاورْتنا فمرحباً بالاقامة ، وإن جاوزْتنا فمصحوب بالسلامة .

فقال الأعرابي :

فجُدْ لي يا ابن ناقصةٍ بمالٍ
فإنّي قد عزمت على المسيرِ

فقال معن : أعطوه ألف دينار تُخفّفُ عنه مشاق الأسفار ، فأخذها وقال :

قليلٌ ما أتيتَ به ، وإنـي
لأطمعُ منك في المال الكثير

فثنِّ فقد أتاك الملك عفوا
بلا عقل ، ولا رأيٍ منير

فقال معن : أعطوه ألفاً ثانيا ، كي يكون عنا راضيا .

فتقدم الأعرابي إليه ، وقبّل الأرض بين يديه ، وقال :

سألتُ الله أن يُبقيك دهرا
فما لك في البريّة من نظيرِ

فمنك الجودُ والإفضال حقا
وفيضُ يديْكَ كالبحرِ الغزيرِ

فقال معن : أعطيناهُ على هجْونا ألفيْن ، فليُعْطَ أربعةً على مدحنا ..

فقال الأعرابي : بأبي أنت أيها الأمير ونفسي .. فأنت نسيجُ وحدك في الحلم ، ونادرة دهرك في الجود ، وإنك لعلى خلقٍ عظيم . ولقد كنتُ في صفاتك بين مُصدّقٍ ومُكذّب ، فلما بلوْتُكَ صغّر الخُبْرَ الخَبَرُ وأذهب ضعف الشكِّ قويُّ اليقين ، وما بعثني على ما فعلت إلا مائة بعير جُعلت لي على إغضابك ..

فقال له معن : لا تثريب عليك .

ووصله بمائتي بعير ، نصفها للرهان والنصف الآخر له ، فانصرف الأعرابيُّ داعيا له ، شاكرا لِهباته ، مُعجباً بحلمه وأناته .

* * *

ونختم هذه المختارات بكلمات بليغة عن « لغتنا الجميلة » :

سئل الرسول الكريم : فيم الجمال ؟ فقال : في اللسان .

وقيل : خير الكلام مالا يُحتاج بعده إلى كلام .

وقال الحسن : عقلُ الرجل مخبوءٌ تحت لسانه ، فإذا أراد الكلام تفكّر ، فإن كان له قال وإن كان عليه سكت ، وعقلُ الجاهل من وراء لسانه ، فإنْ هم بالكلام تكلّم به ، له أو عليه .

* * *

الفصل الثاني

نفحات من بلاغة القرآن

القرآن والفصاحة :

عن الإعجاز القرآني وفصاحة الذكر الحكيم يقول أبو بكر الباقلاني :

إنّ نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب ، ومباينٌ للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد . وليس للعرب كلامٌ مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرّف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ، على هذا الطول ، وعلى هذا القدر .

وإنما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ، يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف ، والتعمل والتكلف ، والتجوّز والتعسف .

ثم يقول الباقلاني :

وقد جاء القرآن الكريم على كثرته وطوله ، متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عزّ من قائل : « الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثانيَ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشوْن ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.. » ويقول : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ذلك إلى أنّ عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه

من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم ، وأخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه .

* * *

المتكلمة بالقرآن :

وتُقدّمُ لنا كتب التراث العربي هذه الصورة الطريفة للسيّدة المؤمنة التي آلت على نفسها ألا تتكلم إلا بالقرآن الكريم ، يرويها عبدالله بن المبارك على أنها واقعة حقيقية حدثت له بعد انتهائه من الحج والزيارة .. فيقول :

« خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في بعض الطريق إذْ أنا بسواد ، فتميزتُ ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف ..

فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فقالت : سلام قولا من رب رحيم .

فقلت لها : يرحمك الله .. ما تصنعين في هذا المكان ؟

قالت : ومن يضلل الله فلا هادي له .

فعلمت أنها ضالة عن الطريق ، فقلت لها : أين تريدين ؟

قالت : سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى فعلمتُ أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس ، فقلت لها : أنتِ مُذْ كَمْ في هذا الموضع ؟

قالت : ثلاث ليال سويا .

فقلت : ما أرى معك طعاما تأكلين .

قالت : هو يطعمني ويسقيني .

فقلت : فبأيّ شيء تتوضئين ؟

قالت : فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا .

فقلت لها : إنّ معي طعاما فهل لك في الأكل ؟

قالت : ثمّ أتموا الصيام الى الليل .

فأدركت أنها صائمة ، فقلت لها : ليس هذا شهر رمضان .

قالت : ومن تطوّع خيرا فإنّ الله شاكر عليم .

فقلت : قد أبيح لنا الافطار في السّفر .

قالت : وأنْ تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون .

ولما وجدتّها لا تتكلم الا بالقرآن الكريم ، قلت لها : لم لا تكلمينني مثلما اكلمك ؟

فقالت : ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد .

قلت : فمن أي الناس أنت ؟

قالت : ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ، إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا .

فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل .

قالت : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

قلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة ؟

قالت : وما تفعلوا من خير يعلمه الله .

يقول عبدالله بن المبارك : فأنخت ناقتي

قالت : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .

فغضضت بصري عنها وقلت لها اركبي ، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزّقت ثيابها .

فقالت : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .

فقلت لها : اصبري حتى أعقلها .

قالت : ففهمناها سليمان .

فعقلت الناقة وقلت لها : اركبي .

فلما ركبت قالت : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون .

فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح .

فقالت : واقصد في مشيك واغضض من صوتك .

فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر ..

فقالت : فاقرءوا ما تيسر من القرآن .

فقلت لها : لقد أوتيت خيرا كثيرا ..

قالت : وما يذكر إلا أولو الألباب .

فلما مشيت بها قليلا قلت : ألك زوج ؟

قالت : يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم .

فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها : هذه هي القافلة فمن لك فيها ؟

فقالت : المال والبنون زينة الحياة الدنيا .

فعلمت أن لها أولادا ، فقلت : وما شأنهم في الحج ؟

قالت : وعلامات وبالنجم هم يهتدون .

فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟

قالت : واتخذ الله ابراهيم خليلا . وكلم الله موسى تكليما . يا يحيى خذ الكتاب بقوة .

فناديتُ : يا إبراهيم يا موسى يا يحيى .. فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت :

فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظرْ أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منـــه .

فمضى أحدهم فاشترى طعاما . فقدموه بين يديّ .

فقالت : كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية .

فقلت : الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها .

فقالوا : هذه أمنا ، وإنّ لها أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزلّ فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء .

فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * *

عن التصوير القرآني :

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجدّدة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحةٌ أو مشهد ، وإذا النموذج الانساني شاخص حيّ ، وإذا الطبيعة البشرية مُجسّمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر ، فيردّها شاخصةً حاضرة ، فيها الحياة وفيها الحركة .

والتصوير في القرآن الكريم تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصويـــر بالتخييل .. كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل .. وكثيرا مـــا يشترك الوصف والحوار وجرْس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في

إبراز صورةٍ من الصور تتملاها العين والأذن والحسّ والخيال ، والفكـر والوجدان .

وهو تصويرٌ حيّ مُنتزعٌ من عالم الأحياء ، لا مجرد ألوان مجرّدة وخطوط جامدة ، تصوير تقاس الأبعاد والمسافات فيه بالمشاعر والوجدانات . فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليهـا الحياة . يريد أن يُبيّن أن الله سيُضيّعُ أعمال الذين كفروا كأنها لم تكن قبل شيئا ، وستضيع الى غير عودة فلا يملكون لها ردّا ، فيقدم هذا المعنى مصورا في قولـه :

« وقدمنا الى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثورا » . وسرعان ما نجد أن صورة الهباء المنثور تعطينا معنى أوضح وآكد للضياع الحاسم المؤكد .

ويرسم هذه الصورة الرائعة للمعنى نفسه :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يـوم عاصف ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا » .

فتزيد الصورة حركة وحياة ، بحركة الريح في يوم عاصف ، تذرو الرماد وتذهب به بدداً .. إلى حيث لا يتجمع أبدا .

ويريد أن يُبيّن للناس أن الصدقة التي تُبذلُ رياء والتي يتبعها المنّ والأذى لا تثمر شيئا ولا تبقى ، فينقل إلينا هذا المعنى المجرد في صورة حسية متخيلة — على النحو التالي :

« يأيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثلُه كمثلِ صفْوانٍ عليه تراب ، فأصابه وابلٌ فتركه صلدا » ..

ونتأمل هنا هيئة الحجر الصلب المستوي ، غطّته طبقة خفيفة من التراب ، فَظُنَّت فيه الخصوبة ، فإذا وابلٌ من المطر يُصيبه ، وبدلاً من أن يهيئـه

للخصب والنقاء والنماء إذا به يتركه صَلْداً ، وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره وتخيل فيه الخير والخصوبة .

وهي جميعا ألوان من الاعجاز القرآني في التصوير ..

* * *

وكلما أمعنا النظر في أسلوب القرآن الكريم تكشّفت لنا فيه آفاق وراء آفاق ، من التناسق والاتساق ، فمن نظم فصيح ، إلى سرد عذب ، الى تعبير مصور ، الى تصوير مشخص ، الى تخييل مجسّم ، الى موسيقى منغمة ، الى اتساق في الأجزاء ، الى تناسق في الاطار ، الى توافق في الموسيقى ، الى افتنان في الاخراج .

وبهذا كله ، يتم الابداع ويتحقق الاعجاز ..

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » .

في هذه الكلمات القلائل تعبيرٌ قويّ رهيب عن شمول علم الله ، اختير له أفضل الألفاظ المعبرة ، والعبارات المصورة ، فليس مجرد تعبير عن معنى العلم الدقيق الشامل أن يقال : « وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمها » ، « ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس » انما هو صورة تخييلية رائعة ، وإنّ الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها ، ومجاهلها جميعا ، ليتتبع هذه الأوراق الساقطة ، وتلك الحبّات المخبوءة ، المشمولة في مجاهلها ومخابئها بعلم الله ، ثم يرتدُّ إلى النفس فيغمرها بالجلال والخشوع ويتوجه بها إلى الله الذي يشمل بعلمه هذه المجاهل والآفاق .

لقد لمس القرآن الوجدان ، واتّبع في ذلك طريقة التصوير ، فبلغ الغاية

بمادته وطريقته ، وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني ، من أقرب طريق ومن أرفع طريق .

* * *

ومن ألوان الجمال التصويري في القرآن الكريم ما يُمكن أن يُسمّى بالتشخيص ويتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، والانفعالات الوجدانية . هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياةً إنسانية تشمل المواد والظواهر والانفعالات ، وتهب لهذه الأشياء كلّها عواطف آدمية ، وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين وتأخذ منهم وتعطي ، وتتبدى لهم في شتى الملابسات ، وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبّسُ به الحس ، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه ، في توفز وحساسية وارهاف .

هذا هو الصبح يتنفس : « والصبح اذا تنفس » فيخيل الينا هذه الحياة الوديعة الهادئة ، التي تنفرج عنها ثناياه ، وهو يتنفس ، فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الأحياء ، على وجه الأرض والسماء ..

وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار فلا يستطيع له دركا : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » .

ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة ، التي لا نهاية لها ولا ابتداء .

وهذا هو الليل يسري : « والليل إذا يسْرِ » فنحسّ سريانه في هذا الكون العريض الفسيح .

وهذه هي الشمس والقمر والليل والنهار في سباق دائم ولكن : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار » .

وإنه ليسباق جبار ، لا يني أو يفتر في ليل أو نهار .

* * *

ويريد أن يقول : إن أعمال الذين كفروا لا حساب لها ولا وزن ، وإنهم يخدعون أنفسهم حين يظنونها شيئا ، أو إنهم في ضلال دائم ، لا مخرج لهم منه ولا هادي لهم فيه .

فإذا بهذا المعنى يحيا ويتحرك ، ويجيش به الحس والخيال ، حين يؤدي في هذه الهيئة التصويرية :

« والذين كفروا ، أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ، والله سريع الحساب » .

« أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور »

هنا صورٌ فنية ساحرة ، فيها روح القصة ، وفيها تخييل قوي ، وهي بَعْدُ في حاجة إلى ريشة مبدعة ، لو أريد تصويرها بالألوان وإلى عدسة يقظة لو أريد تصويره بالحركات .

ولنصور هذا الظمآن يسير وراء السراب حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئا ، ووجد مفاجأة عجيبة لم تكن تخطر له على بال ، وجدَ الله عنده ، وفي سرعة خاطفة تناوله فوفّاه حسابه .

ونتأمل الغرض الديني الذي رُسمت له هذه الصورة ، ونذكر معه المتاع الفني الطريف ، في هذا التصوير الحيّ الجميل .

إن المعاني — في إطار السياق القرآني — تخاطب الحسّ والوجدان ، وتصل الى النفس من منافذ شتى من الحواس بالتخييل والايقاع ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأضواء والأصداء .

فمثلا معنى النفور الشديد من دعوة الإيمان ينقله إلينا التعبير القرآني في هذه الصورة العجيبة الأخاذة :

« فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمرٌ مستنفرة ، فرَّت من قسورة »
فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملكة الخيال وانفعال السخرية وشعور الجمال :
السخرية من هؤلاء الذين يفرُّون كما تفر حمر الوحش من الأسد لا لشيء إلا
لأنهم يدعون الى الايمان ، والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة حينما
يتملاَّها الخيال في إطارٍ من الطبيعة ، تشرد فيها هذه الحمرُ يتبعها قسورة أي
« الأسد » المرهوب .

وكذلك معنى عجز الآلهة التي كان المشركون يعبدونها من دون الله ،
يؤديه التعبير القرآني في هذه الصورة :

« إنَّ الذين تعبدون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن
يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » .

فيشخص هذا المعنى ويبرزه في تلك الصور المتحركة المتعاقبة :

لن يخلقوا ذبـــابا : هذه درجة

ولو اجتمعوا له : هذه درجة أخرى

وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه : هذه درجة ثالثة .

هنا يبلغ التعبير القرآني درجة القمة في تصوير الضعف المزري ، والتدرج
في تصويره بما يثير في النفس السخرية اللاذعة والاحتقار المهين .

* * *

إن الابداع المعجز في التصوير القرآني يضع إطارا للصورة التي يصفها ، أو
نطاقا للمشهد الذي يُعبّر عنه ، فتكتمل آفاق التناسق الفني ، ومن حولها الايقاع
الموسيقي الذي يناسب هذه كله . ومن يتأمل الأسلوب القرآني يستطيع — على
الفور — أن يلمس وظيفة الصور والظلال والايقاع في كل عبارة من عباراته ،
ومقدار اشتراكها في الدلالة الشعورية والتعبيرية ، وفي تصوير الجوّ العام :

« والضحى والليل إذا سجى ، ما ودّعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربّك فحدّث » .

لقد أطلق التعبير القرآني جوّا من الحنان اللطيف والرحمة الوديعة ،والرضى الشامل والشجى الشفيف :

« ما ودعك ربّك وما قلى ، وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربّك فترضى » .

ثـمّ :

« ألم يجدْك يتيما فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » .

ذلك الحنان وتلك الرحمة وذاك الرّضا وهذا الشجى ، تتسرب كلّها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير ، الموسيقى المتناغمة الحركات ، الوئيدة الخطوات الرقيقة الأصداء الشجيّة الايقاع .. فلما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف ولهذه الرحمة الوديعة ولهذا الرضا الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الاطار من الضحى الرائق ومن الليل الساجي ، أصفى آنيْن من آونة الليل والنهار ، وأشفّ آنيْن تسري فيهما التأملات ، وساقهما في اللفظ المناسب . فالليل هو « الليل إذا سجى » لا الليل على إطلاقه ، بوحشته وظلامه ، الليل الساجي الذي يرق ويصفو وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، ثم ينكشف وينجلي ، ويعقبه الضحى الرائق مع « ما ودّعك ربّك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الاطار ، ويتم التناسق والانسجام .

* * *

ولقد حاول الكثيرون على مدار العصور المتعاقبة – وهم يتأملون كتاب الله الخالد – حاولوا تلمُّس ألوان الجمال والاعجاز التي أحاطت بالأسلوب القرآني .

ومن أمثلة هذه المحاولات الموفقة ، التي تكشف عن حس أدبي وفني دقيق ، ما تنبّه اليه الزمخشري من التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص ، والخطوط النفسية التي تصاحبها ، فيقول في تفسير سورة الفاتحة :

« إنّ العبد اذا افتتح حَمْدَ مولاه الحقيقِ بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : « الحمد لله » الدال على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيقٌ به ، وجد من نفسه لا محالة مُحركاً للاقبال عليه .

فاذا انتقل إلى قوله « الرحمن الرحيم » الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها ، تضاعفت قوة ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل الى خاتمة هذه الصفات العظام وهي قوله : « مالك يوم الدين » الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء ، تناهت قوته : وأوجب الإقبال عليه ، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات : « إياك نعبد واياك نستعين » .

هنا ، يصل الزمخشري المُفسِّر إلى نوع من التوفيق في تصوير التناسق النفسي ، بين الأحاسيس المتتابعة المنبعثة من تتابع الآيات ، وهو لون من ألوان التناسق الأولية في القرآن .

* * *

ومن أجمل ألوان التذوق البلاغي للتعبير القرآني الكريم ، ما يتمثل في وقفة علمائنا القدماء أمام قوله تعالى :

« إنّا هديناه السبيل ، اما شاكرا واما كفورا »

وتساؤلهم عن السرّ في أن التعبير القرآني الكريم أتى على هذه الصورة في

المقابلة بين كلمتي : شاكرا وكفورا، فلم يقل : شاكرا وكافرا أو شكورا وكفورا .. تحقيقا للمماثلة بين الكلمتين .

يقول القاضي عبد الجبار في تفسير ذلك :

إن نعم الله على عباده كثيرة ، فكلُّ شكر بإزائها قليل ، وكل كفر بها عظيم . لذلك فقد جاءت كلمة « شاكرا » هكذا بغير صيغة المبالغة ، للدلالة على أن الشكر مهما بلغ فهو قليل ضئيل بالنسبة لهذه النعم .

وجاءت كلمة « كفورا » بصيغة المبالغة للدلالة على أن الكفر بهذه النعم هو أمر عظيم ، يستوجب التهويل والمبالغة .

وهو تعليل دقيق ، يدل على ذكاء الملاحظة ، ودقة الحس ، وعمق التـذوق .

* * *

وللألفاظ في القرآن الكريم — كما للعبارات — ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ، حينما يُوجّهُ إليها انتباهه ، وحينما يستدعي في خياله صورة مدلولاتها الحسية ، هذه الألفاظ ترسم صورة الموضوع ، ليس فقط بجرْسها الذي تُلقيه في الأذن بل بظلّها الذي تلقيه في الخيال .

مثال ذلك الآية الكريمة « واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فالظل الذي تلقيه كلمة « انسلخ » يرسم صورة عنيفة للتملص من هذه الآيات.. لأن الانسلاخ حركة حسية قوية .

ومثل الآية الكريمة : « فأصبح في المدينة خائفا يترقب » فلفظ « يترقب » يرسم هيئة الحذر المتلفت ، والعبارة هنا تبرز قيمة اللفظ المصور للفزع والاضطراب .

وقد يشترك الجرس والظل في لفظ واحد ، كما جاء في الآية الكريمة :

« يُدَعُّونَ إلى نار جهنم دعّاً » فلفظ « الدع » يصور مدلوله بجرسه وظلـــه جميعـــا .

وكما في الآية الكريمة : « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم » فالعتْل جرس في الأذن وظل في الخيال يؤديان المدلول للحس والوجدان .

• • •

ومن ألوان البلاغة القرآنية هذا التناسق الفريد الذي يبلغ الذروة في التصوير . والتناسق ألوان ودرجات .

منها ذلك التنسيق في تأليف العبارات ، بتخير الألفاظ ثم نظمها في نسق خاص ، يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها ..

ومنها ذلك الايقاع الموسيقي الناشيء من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص.

ومنها ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات ، والتناسق في الانتقال من غرض إلى غرض .

وهناك المواضع التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية . مثال ذلك الآية الكريمة : « نساؤكم حرْثٌ لكم ، فأتوا حَرْثكم أنّى شئتم » .

وفي هذا التعبير البليغ ألوانٌ من التناسق الظاهر والمضمر ، ومن لطف الكنايةِ عن ملابساتٍ دقيقة ، وأدقّ ما فيه هو ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه ، وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص ، وبين ذلك النّبْتِ الذي يخرجه الحرث ، وذلك النبت الذي يخرجه الزوج .. وما في كليهما من عمران وفلاح وازدهار وخصوبة .

وتسمع الاذن كلمة « اثّاقلتم » في قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الارض » .

فيتصور الخيال ذلك الجسم المثاقل ، يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقط من أيديهم في ثقل ، ولو قيل : « تثاقلتم » لخف الجرس ، ولضاع الأثر المنشود ، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقلّ برسمها .

* * *

فواصل القرآن الكريم :

ويقول المتذوقون لأسرار التعبير القرآني ، إنّ من أسرار نظم فواصله وقوة أسرها – معنى ومبنى – شدة ارتباطها بما قبلها من الكلام ، وقوة تعطف الكلام عليها ، كأنهما معا جملة مفرغة يسري فيها روح واحد ونغم واحد ، ينحدر إلى الأسماع انحدارا ، وكأن ما سبقها لم يكن الا تمهيدا لها ، لتتمم معناه، وحتى لتبلغ من وقوعها موقعها واطمئنانها في موضعها أنها لو حذفت لاختل معنى الكلام ، واضطرب فهمه ، واستغلق بيانه ، ولو سكت عنها لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع الملهم والذوق السليم .

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر .. »

فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ..

فضحك رسول الله . فقال معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت .. (أي أن هذا الذي قلته هو ختام الآية فعلا) ..

وهو موقف يدلنا على الاعجاز في بناء القرآن الكريم ومساوقته الطبع العربي الملهم والذوق الفطري السليم في تنبؤه بختام الآية قبل أن ينطق بها الرسول الكريم.

بل قد يبلغ من تعيّن الكلمة أو العبارة في مكانها وفرض نفسها عليه ، أنها لو بدل بها غيرها لأدرك السامع الحصيف الثاقب الفطنة أن كلاما غريبا ينقصه التناسب حلّ محلها ، فأ نكر ذلك سمعه وضاق به صدره ..

يروون أن رجلا في عهد عمر بن الخطاب سمع أعرابيا يقرأ قوله تعالى : « فان زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أن الله غفور رحيم » .

فقال الرجل : هذا لا يكون ..

وفي رواية أخرى أنه قال : إن كان هذا كلام الله ، فلا يقول كذا . الحكيم لا يذر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه .

وقد صدق الرجل ، فإن صواب الآية هو : « فاعلموا أن الله عزيز حكيم » .

إذ لا معنى للغفران والرحمة بعد وضوح الحق ، وقيام الحجّة على الشاهد .

ويروون أن أعرابياً آخر سمع شخصاً يقرأ :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله .. والله غفور رحيم » .

فقال : ما ينبغي أن يكون الكلام هكذا .

فقيل له : الحق معك ، إن القارىء قد أخطأ ، والقراءة الصحيحة هي : « والله عزيز حكيم » .

فقال : نعم ، هكذا يجب أن تكون فاصلة الكلام ، فإنّه لمّا عزّ حكم .

* * *

ومن أمثلة التناسق القرآني الرائعة قوله تعالى حكايةً عن قوم شعيب : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل في أموالنا

ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد » .

فانه لما تقدم في الآية الكريمة ذكر العبادة ، وتلاه ذكر التصرف في الأموال ، قتضى ذكر الحلم والرشد على الترتيب ، لأن الحلم يناسب العبادات ، والرشد يناسب الأموال ..

ولهذا كان بلوغ الرشد معتبرا في تمكين القاصر من أمواله ..

• • •

ومن المقاصد البارزة في فواصل القرآن الكريم أن تكون شاجية النغم ، حلوة الجرس ، عذبة الرنين ، تطرب بلفظها كما تطرب بمعناها ، ليتمّ لهـا الحسن من جميع جهاته ، ومن هنا كانت تلاوة القرآن بالصوت النديّ الرخيم ، تضاعف من تأثر سامعه وتزيد في خشوعه ، لأن الأداء الدقيق الجميل يستطيع أن يبرز هذا الانسجام الساري في الفواصل على أكمل صورة أريدت له .

لهذا قد تميزت هذه الفواصل بسمات تُوفّرُ لها الموسيقية :

أولاها : أنها أكثر ما تختم بحروف المد واللين وإلحاق النون ، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم على أسهل موقف وأعذب مقطع ، ونحن نحس أن النون حرف نواح ، يتضمن شحنة قوية من النغم المشع كيفما استعملناه ، ومن العجيب أنّ مادة الرنين قد اكتسبت صفتها من هذا الحرف نفسه .

وثانيتها : أن حروف الفواصل إما متماثلة كقوله تعالى :

« والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور » .

أو متقاربة ، كقوله تعالى : « الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » . وقوله تعالى : « ق . والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب » .

وثالثتها : أن تتقدّمها ألفاظ تمهد لوقوعها وتسوق اليها ، وهو ما سماه

المتقدمون ردّ الأعجاز على الصدور وسماه المتأخرون : التصدير ، في مثل قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » وقوله تعالى : « أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا » . وقوله تعالى : « منهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وقوله تعالى : « وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

وقوله تعالى : « انظر كيف فضلنا بعضكم على بعض ، وللآخرة أكبرُ درجات وأكبر تفضيلا » .

ورابعتها : أن تتكرر هذه الفواصل في بعض السور ، نحو قوله تعالى : « فبأيّ آلاء ربكما تكذبان » في سورة الرحمن .

وقوله تعالى : « ويل للمكذبين » في سورة المرسلات .

وقد كررت « فبأي آلاء ربكما تكذبان » لأن الله سبحانه عدّد في السورة نعماءه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبّههم على قدرها ، وقدرته عليها ولطفه فيها ، وجعلها فاصلة بين كل نعمة وأخرى ليُعرفَ موضعُ ما أسداه إليهم منها .

ثم فيها — إلى جانب ذلك — معنى التقريع والتوبيخ ، فإن تعديد الآلاء من الرحمن تبكيتٌ لمن أنكرها ، كما يوبّخ من ينكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها له .

ولا شك أن هذه الفاصلة في سورة الرحمن « فبأي آلاء ربكما تكذبان » — وهي من السور المقروءة كثيرا — قد زادت من روعة التلاوة ، بما خلعت عليها من إيقاع محبب بهيج ، وأمدت القراء بألوان من التنغيم المؤثر الأخاذ ، يستثير المشاعر ، ويحدونا إلى ترديد هذه الفاصلة في خشية غامرة وخشوع عميق .

* * *

عن تأثر الشعر بالقرآن :

يلاحظ دارسو الأدب العربي أن الشعر العربي في عصور الدولة العربية الأولى تأثر بالقرآن الكريم في ألفاظه وأساليبه ومعانيه ، كما كثر اقتباس الآيات القرآنية واستعمال حكم القرآن ومواعظه .

يقول جرير :

فلا هو في الدنيا مضيعٌ نصيبه
ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغله

وهو مقتبس من الآية القرآنية : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنْس نصيبك من الدنيا » .

ويقول أيضاً :

وحبل الله تعصمكم قواه
فلا تخشوا لعُرْوتِه انفصاما

وهو مأخوذ من قوله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تَفرّقوا .

ويقول جرير في مدح الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز :

نال الخلافة ، أو كانت له قَدَراً
كما أتى ربّه موسى على قَدَرِ

فهو مأخوذ من قوله تعالى : ثم جئت على قدر يا موسى .

ويقول في عبد الملك بن مروان :

الله طوّقك الخلافة والهدى
والله ليس لما قضى تبديل

فهو مأخوذ من قوله تعالى : لا تبديل لكلمات الله..

ويقول أبو الأسود الدؤلي :

أميران كانا صاحبيّ كلاهما
فكلٌّ جزاه الله عنّي بما فَعَلْ

فإنْ كان خيراً ، كان خيرا جزاؤه
وإن كان شرّاً كان شرّاً كما فعل

وهو مُستوحىً من قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، وم
يعمل مثقال ذرة شرّا يره » . .

• • •

وتأثر التوقيعات بالقرآن :

شاع قديما – في عصور ازدهار الدولة العربية – أدب التوقيعات. والتوقيعا
هي ما كان يُعلّقُ به الخليفة أو الأمير أو الوزير أو القائد على ما يُقدّمُ إليه •
الكتب والرسائل في شكوى حالٍ أو طلب نوالٍ أو التماس مشورة أو تدب
أمر . وكانت هذه التوقيعات تجمع بين الإيجاز والجمال والقوة ، وقد يكو
التوقيع آيةً كريمة أو مَثلاً سائرا أو كلمة حكيمة أو بيت شعرٍ له مغزاه
وهذه بعض التوقيعات المتأثرة بالقرآن الكريم :

كتب مسلم بن عقبة المُرّي إلى يزيد بن معاوية يخبرُه بالذي صنعه ببعض
الخارجين على الدولة الأموية ، فوقع يزيدُ في أسفل كتابه : فلا تأْسَ ع
القوم الفاسقين .

وكتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدّدهُ بالخلع ، فوقّع ا
كتابه : والعاقبة للمتقين .

ووقع عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة عندما كتب اليه يخبره أنه فعل في أمره كما فعل عمر بن الخطاب :

أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده .

ووقع أبو العباس السفاح إلى عامل تظلم منه الناس :

وما كنت متخذ المضلين عضدا ..

ووقع المهدي إلى عامله على أرمينية وكان قد شكا اليه سوء طاعة رعاياه :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

* * *

بعض أسرار الإعجاز :

ويقول ابن الأثير وهو يتحدث عن أسرار الاعجاز في التعبير القرآني :

الإيجاز بالقصر ، هو الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها في عدتها ، وهو أعلى طبقات الايجاز مكانا وأغزرها بيانا ، واذا وجد في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد نادراً .. وعلى قلة : من ذلك ما ورد في القرآن الكريم :

« ولكم في القصاص حياة » ..

فإن قوله تعالى : « القصاص حياة » لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة ، لأن معناه أنه إذا قُتل القاتل امتنع غيرُه عن القتل ، فأوجب ذلك حياةً للناس ، ولا يقاس على هذا ما ورد عن العرب من قولهم : القتل أنفى للقتل . ذلك أن كلمة القصاص أشمل وأعم من كلمة القتل ، فمنها قصاص على القتل ، وقصاص على الجروح ، وقصاص يراد به التعزير أو التأديب ، وكلُّ ما كان عقوبةً شرعية أو اجتماعية أو أدبية ، فهو داخل في هذا المعنى ، وما من عقوبة ، إلا

وينظر فيها إلى مصلحة المجتمع ، فهي متصلة بحياته الاجتماعية بصورة من الصور ، من بعيد أو قريب .

و « القصاص » عقوبة مشروعة لمن يستحق الجزاء بها على جناية اقترفها أو ذنب جناه ، أما القتل — في التعبير البشري : القتل أنفى للقتل — فقد يكون عدوانا كما يكون قصاصا .. فالقرآن الكريم أدق في لفظه وأشمل في معناه ، كما أن تقديم الجار والمجرور في الآية الكريمة : « ولكم في القصاص حياة » قد أفاد فائدة بلاغية من حيث التخصيص ، وهو ما لم يتحقق في عبارة « القتل أنفى للقتل » .. كما أن الآية الكريمة قد سلمت من التكرار الذي وقعت فيه حكمة العرب بذكر القتل فيها مرتين .

ثم إنّ في الآية ترغيبا في القصاص بذكر الحياة ، وجعْلِها نتيجةً له ، وإظهارا للعدل بكلمة قصاص ، وأن القتل ليس تشفيا .. وتنكيرا لكلمة « حياة» وهو تنكير للتعظيم ..

وهكذا نجد في هذه الآية الكريمة « ولكم في القصاص حياة » صورة رائعة لايجاز اللفظ وجمال التعبير وحلاوة السبك ، وروعة البيان وإصابة المعنى .

* * *

مذهب في التفسير :

كان لابن عباس — العالم والمفسر الجليل — مذهبٌ اشتهر به في التفسير وغلب عليه ، وهو أن يحتج على غريب اللغة — في التعبير القرآني — بالشعر . وكان يقول : اذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر .. فإنّ الشعر ديوان العرب .

يروون عنه أنه كان جالسا بفناء الكعبة ذات يوم ، وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، إذ تقدم منه أعرابيان فقالا : إنا نريد أن نسألك عن

أشياء في كتاب الله ففسّرها لنا ، وائتنا بمصارفها من كلام العرب فإن الله تعالى أنزله بلسان عربي مبين .

فقال ابن عباس : سلاني عما بدا لكما ..

فقالا : أخبرنا عن قوله تعالى :

« عن اليمين وعن الشمال عِزِين »

فقال : العزون : حلق الرفاق وتجمعهم .

قالا : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم ، يقول عبيد بن الابرص :

فجاءوا يُهرعون إليه حتى
يكونوا حول منبره عِزِينا

قالا : فأخبرنا عن قوله تعالى :

« وابتغوا إليه الوسيلة »

قال : الوسيلة : الحاجة .

قالا : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : أما سمعتما قول عنترة :

إن الرجال لهم إليك وسيلةٌ
أن يأخذوك تكحّلي وتخضبي

قالا : فأخبرنا عن قوله تعالى :

« لقد خلقنا الانسان في كبد »

قال : أي في اعتدال واستقامة .

قالا : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم .. أما سمعتما قول لبيد بن ربيعة :

يا عينُ هلا بكيْتِ أرْبدَ إذْ
قمنا ، وقام الخصومُ في كبد

قالا : فأخبرنا عن قوله تعالى :

« فأجاءها المخاض »

قال : أي ألجأها المخاض .

قالا : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال ابن عباس : نعم ، أما سمعتما قول حسان بن ثابت :

إذْ شددنا شدّةً صادقة
فأجأناكم إلى سفْحِ الجبَلْ

* * *

لوحةٌ قرآنية فاتنة :

وأخيرا مع هذه اللوحة القرآنية ، الوضيئة بأسرار التعبير القرآني المعجز ، المشعة بما تحمله كلماتها من جمال التصوير وحلاوة الجرس وتساوق المقاطع وتدفقها ..

يقول تعالى :

« الله نور السموات والأرض ، مثلُ نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرّيٌّ ، يوقدُ من شجرةٍ مباركةٍ ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسسْه نارٌ ، نورٌ على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكلّ شيء عليم » .

ما يكاد هذا النص القرآني يتجلى ، حتى يفيض النور الهادىء الوضيء ، فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح وينسكب في الحنايا والجوانح وحتى يسبح الكون كلّه في فيض النور الباهر ، وحتى تعانقه وترشقه العيون والبصائر ، وحتى تنزاح الحجب وتشف القلوب وترف الأرواح ويسبح كلُّ شيء في الفيض الغامر ، ويتطهر كل شيء في بحر النور ، ويتجرد كلُّ شيء من كثافته وثقله ، فإذا هو انطلاق ورفرفة ، ولقاء ومعرفة ، وامتزاج وألفة وحبور معا ، وإذا الكون كلُّه بما فيه ومن فيه ، نورٌ طليق من القيود والحدود ، تتصل فيه السموات بالأرض ، والأحياء بالجماد ، والبعيد بالقريب ، وتلتقي فيه الشعاب والدروب والطوايا والظواهر والحواس والقلوب ..

« الله نور السموات والأرض » النور : الذي منه قوامها ومنه نظامها ، فهو الذي يهبُها جوهرَ وجودها ، ويُودعها ناموسها ، ويأذنُ للإنسان بالحياة فيها ، والوجود على أديمها ..

نور الله .. ويا له من نـــور !





الفصل الثالث

تحقيقات لغوية



من أساليب العصر وتعابيره :

المتأمل في تاريخ لغتنا الجميلة يلاحظ أنّ في كل حقبة من الزمان ، تغيرات في الأساليب والتعابير المستعملة ، يتقبلها الجمهور ويمارسها ، فلا يلبثُ الكثير منها أن يصبح شائع الاستعمال تجري به الأقلام والألسنة دون حَرَجٍ أو معارضة .

ولو أجلْنا النظر في عصرنا الحاضر لوجدنا عددا وافرا من هذه الأساليب والتراكيب والتعابير الجديدة التي نشأ أكثرها بعد الحربين العالميتين ، فأصبحت الصحف ووسائل الاتصال بالجماهير تتناقلها وأخذ المؤلفون يستعملونها ، ولقد حاول اللغويون المتشددون أن ينقدوا هذه الأساليب ، وأن يعترضوا عليها ولكنها بالرغم من ذلك سادت وشاعت وأصبحت حقيقة قائمة شائعة .

مثال هذا ما حدث للفعل «اكتشف» في مثل قولنا : اكتشف نيوتن قانون الجاذبية ، أو اكتشف كولومبوس أمريكا ، فقد أنكر هذا الفعل جماعة من كبار أهل اللغة ورأوا أن يستبدل به الفعل استكشف أو كَشَفَ أو كشّف وأصروا على ذلك زمنا ، ثم هدأت العاصفة النقدية وبقي الكتاب يستعملون اكتشف .

كذلك فقد تسرَّبت إلى لغتنا الجميلة في العصر الحديث أساليبُ كثيرةٌ ، دخل بعضها بفعل الترجمة أو نتيجة للصراع والاحتكاك والتفاعل بين اللغات أو

لعلها بدأت تسللها من العاميات إلى الفصحى بواسطة العاملين في أجهزة الاتصال بالجماهير كالصحافة والاذاعة والسينما والمسرح والتليفزيون .

من هذه الأساليب التي شاعت في لغتنا الجميلة قولهم : أثّر عليه ، والمعروف أن فعل التأثير في اللغة العربية يتعدى بحرف الجر « في » . فيقولون : أثّر في نفسه لا أثّر على نفسه .

وقولهم : قرأت لامارتين ودرست فيكتور هيجو

فيعدّون فعلي قرأ ودرس إلى الذات ، وهما في العربية إنما يُعدّيان الى الآثار المكتوبة ، فيقال : درست كتابات فيكتور هيجو وقرأت آثار لامارتين .

وهذه مختارات من الأساليب الشائعة الآن على ألسنة كتابنا وفي لغة صحافتنا ولغة التخاطب بيننا ، وكلّها بفعل الترجمة عن اللغات الأجنبية :

- وبالنظر إلى كذا .. جرى كذا وكذا .
- وفي الوقت نفسه ... جاء فلان
- فلان يعمل ضدّ فلان
- هو يقتل الوقت (أي يضيعه عبثا فيما لا جدوى منه)
- هو يمثل بلده في المحافل والمؤتمرات الرسمية
- هم عشرة على الأقل (أو على الأكثر)
- أعطى رأيه في هذه القضية
- طرح المسألة على بساط البحث
- المسألة الآن تحت البحث والدراسة
- جوّ السياسة مكهرب
- ذر الرماد في العيون
- يكسب خبزه بعرق جبينه

- لا يرى أبعد من أرنبة أنفه .
- هو يلعب بالنار (أي يعرض نفسه للخطر)
- لا جديد تحت الشمس
- أعطاه فرمانا (تفويضا) على بياض ، أو شيكا على بياض
- أعطاه صوته في الانتخابات
- هذه نقطة ارتكاز (أي قاعدة للعمل)
- يقبض على دفّة الأمور ..
- وضع النقط على الحروف (أي بيّن الأمر وأوضحه)
- يلعب دورا في هذا الموضوع .
- فلانٌ يؤيده الشارع (أي يتمتع بتأييد الجماهير)
- هو رجل الساعة
- كلّمه بطرف شفتيه (أي باحتقار)
- توترت العلاقات بين البلدين
- تلبد جو السياسة بالغيوم
- هو حجر عثرة في سبيل كذا
- يصطاد في الماء العكر
- يشرب على صحة فلان أو شرف فلان (وقد شاع أخيرا تعبير شرب نخب فلان)
- يضحك ضحكة صفراء (أو صفراوية)
- يفعل كذا بصفته كذا
- قال ذلك ببساطة . مسألة بسيطة . رجل بسيط .
- لسان الحال .
- ترجمة سطحية . معرفة سطحية . بحث سطحي
- موضوع وارد وغير وارد (أي داخل في نطاق البحث أو غير داخل)
- دسائسه تُغذّي الفتنة .

— تصفية المحل التجاري . التصفية القضائية
— تأثّرتُ بكتبه إلى حد كذا أو الى درجة كذا ..
— هو عظيم بمعنى الكلمة
— تأنيب الضمير .. ضميره يوبخه أو يؤنبه (وفي القرآن الكريم تعبير : النفس اللوّامة) .
— قام بالمساعي الحميدة
— نقد بريء ، كلمة شكر بريئة (وربما كان الفصيح أن يقال نقدخالص أو كلمة شكر خالصة : من شوائب سوء النيــة)
— يفعل كذا على ضوء كذا
— خصص عمره للأدب ، وللأدب وحده .
— لا محل له من الإعراب (أي أن وجوده غير طبيعي وغير لازم)
— تأثّر بمدرسة الفيلسوف فلان(ويراد بالمدرسة مجموعة التعاليم والآراء التي أصبحت مذهبا له يميّزه عن غيره)
— يتمتع (بالحصانة) النيابية أو البرلمانية أو القضائية
— صاحب كرسي في الجامعة
— ترجم لفلان (أي كتب سيرته)
— على قدم المساواة (بمعنى التسوية بين الشيئين)
— مات ولم يعرف امرأة (أي أنه لم يتزوج)
— حرق البخور أمامه .. حرق بخور الثناء بين يديه (كنايةً عن المدح الذي يداخله نفـــاق أو مبالغــة) .
— ذهب ضحية مبدئه
— بشّر بدينه — أو تعاليمه . أو بشّر بالآداب العربية في بلاد أمريكا .
— مباركٌ هو الرب .

— شريرة هي المرأة التي تفعل كذا .
— كلّل العروسين (أي زوّجهما على الطريقة المسيحية)
— ضحّى على مذبح أغراضه أو شهواته ·
— من له أذنان فليسمع
— أخذ زمام المبادرة
— صبّ عليه جام غضبه
— طلب يد فلانة
— أغرق التاجر السوق
— من أكبر العاملين في (حقل) الوطنية — « حقل » المصلحة الوطنية
— فلان دودة كتب
— أحيل على التقاعد
— اجتماع قمـــة
— أصاب عصفورين بحجر واحد
— أرضية الموضوع أو خلفية الموضوع
— استقطاب الجهود (بمعنى تجميعها وحشدها في اتجاه واحد) .
— إصلاح جذري أو علاج جذري
— امكانية التعايش أو التواجد بين الأنظمة المختلفة
— اختلافات عقائديـــة
— ارتباط عضوي
— تصعيد الموقف أو الأزمة (أي دفعه الى درجة أشد)
— سيولة نقدية (أي العملات المتداولة)
— ساعة الصفر
— تغطية الحوادث
— جمّد المال في المصرف (أي منع اخراجه او التصرّف فيه)
— فاتهم القطار (أي ضاعت عليهم الفرصة)

- جلسوا الى مائدة مستديرة
- كونوا على مستوى المسئولية
- نظر إلى المسألة من جميع أبعادها (أي من جميع نواحيها)
- تبلورت الفكرة
- يذرف دموع التماسيح
- يعمل على ضوء كذا أو في ضوء كذا
- يرفع رأس أمته عاليا
- محاطة بهالة من الرهبة
- أتى على الأخضر واليابس
- يضرب الرقم القياسي في كذا
- يستغل الموقف
- هو كمية مهملة أو كم مهمل
- جرْياً على خطته التقليدية
- يخلق جوّاً من الشبهات
- حدث هذا في جوّ يسوده الود
- فلان يلعب بالنار
- سرّ المهنة
- هو فقيد الواجب وضحية الكفاح ..
- من الشخصيات البارزة
- يلعب دوراعلى مسرح السياسة
- يشق طريقه الى الحياة
- رمى له القفاز والتقط القفاز (كنايةً عن التحدي)

* * *

هذه مختارات من التعابير والأساليب والمصطلحات الّتي درج الكتاب الآن على استعمالها في الصحف والمؤلفات ، وهناك كثير غيرها مما لم يدخل بعد نطاق الاستعمال العام ..

ولقد شاع بعض هذه الأساليب واستقرّ ، لأنه أدلّ على المعنى المقصود ، وأكثر اقتصادا بالنسبة لذهن القارىء أو المستمع المعاصر ، ولأنه أقل تكلفا وتعقيدا أو أكثر التصاقا بحياة الناس ، وأجمل إيقاعا في الأذن والقلب ، فضلا عن عدم مخالفته لأصول اللغة وقواعدهـا .

يبقى أن نقول كما قال عالم لغوي معاصر : إن لكل كاتب ذوقه ، والنقد من وراء الأذواق بالمرصاد ، ولا ينبغي أن تقابل هذه الأساليب الجديدة بنظرة تشاؤمية حرصا على لغتنا الجميلة ، ما دام ذوقنا كالحاجب على الباب ، يأذن ويصدّ ويقبل ويرد .

* * *

لغتنا : كيف تنمو وتتجدّد ؟

ومن المعروف أن اللغة تنمو وتتجدد بتأثير عاملين رئيسيين : أحدهما هو الكسب الخارجي أي ما يتسرّب اليها من لغات أخرى ، ثم يتأصل فيها ويصبح جزءا ثابتا منها . ومن هنا ، فقد استقرّت في لغتنا الجميلة ألفاظ وتعـابير وأوضاع — على توالي العهود فأصبحت بمنزلة الفصيح من كلامها، ونستعملها نحن في نثرنا وشعرنا دون أن نحسها غريبة عنا ، بل إن بعضها قد غلب على ما يقابله من لفظ عربي سابق وأقصاه عن الاستعمال .

والعامل الثاني : هو التولد الداخلي ، وهو مـا ينشأ في اللغة عفوا أو قصدا ، وتسوق إليه الحاجة — سوقا طبيعيا — دون تكلف الدرس أو البحث ، فيجري على ألسنة الناس وأقلامهم منبعثا عن سليقة لغوية يستجيب لها الجمهور في أغلب الأحيان .

ومن الأمثلة القديمة على ذلك : استعمال عمر بن أبي ربيعة كلمة «تبدّى» بمعنى بدا في قوله :

وتبـــدّت لي ، فـأبدت واضحـا منهـا نحيضـــا

« والنحيض » هو المكتنز اللحم .

واستعمال ابن المعتز فعل « أثمر » متعديا في قوله :

فأثمرَ همـّـاً لا يبيد وحسرة لقلبي يجنيها بأيــدي الخواطر

واستعمال المتنبي كلمة « تقصد » بمعنى قصد ، في قوله :

تقصّده المقـــدار بين صحابــه

على ثقة من دهره وأمـــــان

بل إنه يندفع مع السليقة فيستعمل « تفارس » لمحاولة الخصوم افتراس بعضهم بعضا ، فيقول :

إنمـــا أنفس الأنيس سبـــاع

« يتفارسن » جهـــرة واغتيـــالا

وما حدث في الأزمنة السابقة حدث ويحدث في عهدنا الحاضر ، فقد جرت على الألسنة والأقلام — جريانا طبيعيا — ألفاظ وأوضاع جديدة لمعان شتى ..

فقيل مثـــلا :

فنّـــان : للماهر في الفنون : ولم ترد الكلمة في اللغة أصلاً لهذا المعنى .

احتجَّ على أمر ما : أي أنكره ووضع فاعله موضع الملامة

حكم على المجرم بالإعدام : أي بالموت ، والاعدام أصلاً فَقْدُ المال فحوّلوه الى فقد الحياة .

تكرير الشراب : أي تصفيته وتنقيته بتكرير نقله من حال الى حال .

المظاهرات الشعبية : أي ظهور الشعب معا لمناصرة قضية ما ، والبعض يقول : « التظاهرات »

نظام وحدوي : نسبة إلى وحدة ، والقياس أن يقال : وحدي ، ومثلها ،
كتلوي نسبة الى كتلة ، وكان الكتاب يقولون — بحكم السليقة —
ثوروي نسبة الى ثورة فعدلوا عنها مؤخرا إلى القياس المتكلف وصاروا
يقولون : ثوري .

* * *

بين الماضي والحاضر :

والمتأمل للغتنا الجميلة — بين الماضي والحاضر — فيما يتصل بقوانين نظم الجمل والعبارات وهندستها ، يجد أن للجملة العربية في كل من الحقبتين سمات وخصائص معينة .. من ذلك مثلا أن الجمل الحديثة أطول نسبيا من القديمة ، وأنها حافلة بالجمل الاعتراضية ، كما أنها تستعمل حروف الجرّ — والأدوات عامة — استعمالا يخالف الاستعمال القديم الى درجة ملحوظة ، بل وتمتلىء أساليبنا الآن بعبارات ليست الا ترجمة لأساليب أجنبية خالصة ، لا تعرف العربية في القديم مثيلا لها أو شبيها .

من ذلك ما نُردّده من العبارات المألوفة الشائعة اليوم مثل :

أنا كعربي .. وهذه النظرية كنظرية .. مع أن قواعد اللغة العربية تقتضينا أن نقول في هاتين العبارتين : أنا بوصفي عربيا ، وهذه النظرية باعتبارهـــا نظريـــة .

ومن ذلك أيضا ذلك التقليد الحديث من بدء بعض الجمل بدءاً لا نعهد له مثيلا في العربية القديمة مثل : طبقاً لهذا ، نظراً لأن ، أما وقد اتفقنا ، هذا وقد حدث كذا ..

وكل هذه العبارات يمكن ردها الى تأثير لغات أجنبية ، فهي في الانجليزية مثـــلا :

According to this. و

Because of. و

Having agreed. .

* * *

والذي يُقلّب النظر في أساليبنا العربية التي نستعملها هذه الأيام ، يلاحظ على الفور امتلاءها بالكثير من حروف العطف والتوكيد وأسماء الاشــارة والموصولات ، وهي جميعا ثقيلة الوطأة على اللغة ، لا محلّ لها من الاعراب ، ولا يستطيع الاستغناء عنها أو تجنُّبها إلاّ مَنْ له درايةٌ ، وفطنة بلغة التعبير الصحيح الفصيح ، حرْصاً على سلاسة التعبير ، وحيويته ، وقدرته على الوضوح والبيـــان .

كذلك فما أكثر ما نستعملُ كلمات مثل : أمسى وأصبح وحسب وظنّ وأخواتها ، يُجاء بها حَشْواً في معظم الأحوال ، دون ضرورة تدعو إلى ذلك ، وكذلك هذه الحروف التي تربط بعض الكلام ببعض وتشدُّ بين طرفي الجملة ، ولا تدلُّ على معنى في ذاتها ، هذه الحروف وتلك الأسماء والأفعال يقبحُ تكرارها وإن اختلفت ألفاظها المستعملة في الكلام .

مثلا : اسم الاشارة « هذا » الذي نستعمله في معظم نشراتنا الاخبارية فنقول : هذا ... وقد صرّح متحدث رسمي بكذا .. وهو لفظة زائدة في الكلام ، لا تفيد معنى ، ولا تضيف جديدا .

وتمكُّننا من تأمل أساليبنا يجعلنا أكثر حرصا على تنقيتها من الفضول والحشو .. وأكثر اقترابا من التعبير العصري الصحيح ، وقد يكون ذلك مثلا بالفصل بين الحروف الكثيرة المستعملة في كلامنا بفاصل ما ، وقد يكون بتقديم كلمة وتأخير أخرى ، فهناك من يقول : هذا موضوع له به عناية .

مع أن الأفضل والأجمل أن يقول ، هذا موضوع له عناية به .

وفى بعض الأحيان يكون قولك : أنا فاعل كذا
أوقع وأجمل من قولك : أنا أفعل كذا ..
والمسألة ــ بعد ــ مسألة ذوق لغوي وحس أدبى تعبيري .
كما ان هناك العديد من الظواهر الجديدة التى نلاحظهـــا فى بناء الجملة العربية الحديثة ولا تكاد تبدو شائعة فى الضوابط التى استخرجها النحاة والبلاغيون من لغة القرون الأولى .

فالجملة العربيـــة الحديثـــة كما نعرفها الآن ــ فى الكتابات والمؤلفات ــ تعرف تراكم المصـــادر على نحو لم يعرف قديما بنفس هذا القدر من الانتشار . فنحن نسمع ونقرأ الان مثلا : استحالة منع نشوب حرب بين العرب واسرائيل . والكلمات : استحالة ومنع ونشوب وحروب كلها مصادر أضيف سابقها إلى لاحقها على صورةٍ لم تكن تعرفها العربية القديمة .

كذلك ، فنحن نلاحظ في النثر العربى الحديث اتجاهاً إلى فكّ حالة الاضافة باستخدام حرف جر ، نتحدث عن صورة من الصور فنقول : هذا منظر عام للواجهة الاقليمية لجامعـــة القـــاهرة ، تفصيلا للعبارة الموجزة : منظر واجهة جامعةُ القاهرة . ولكن الجملة الأولى عرفت فكّ حالة الاضافة مســـتخدمة بين المضاف والمضاف إليه حرف جر هو اللام .

وهناك أيضا فك لحالة الاضافة نلاحظه في استخدام حرف الجر : الباء ، فنحن نقرأ عن قرار بتأميم شركة أو تفويض بعقد اتفاقية أو أمر بإنشاء مشروع ولم تعد هذه الظاهرة المسايرة لروح هذا العصر أمراً نادراً أو خاصا بضرورة الشـــعر كما سجل النحاة القدماء .

حول السليقة عند العرب المحْدثين :

ومن الأبحاث اللغوية الطريفةــ في هذا المجالــ ما تقدم به الأستاذ عبد الله

كنون عضو مجمع اللغة العربية عن المغرب — إلى مؤتمر المجمع — تحت عنوان السليقة عند العرب المحدثين — يقول فيه :

كان العرب الأولون يتكلمون اللغة العربية بالسليقة أي بالمران والتعود من غير تلقين ولا تعليم كما نتكلم نحن العامية اليوم . فيقيمون بها ألسنتهم ، وتنشأ عندهم ملكة التعبير عن الأغراض المختلفة بكلام عربي مبين .

والسليقة — أي الطبيعة — تعني أيضا التصرفَ في وجوه الكلام بالاشتقاق والتعريب والقياس على ما وضعته العرب وتكلّمت به من صيغ وأساليب حتى ما يتعلق منها بالبلاغة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ومذه أثارةٌ من السليقة العربية لا تزال عند العرب المحدثين يتوارثونها خلَفاً عن سلف وجيلاً عن جيل ، يتصرفون بها في لغتهم فيَمُدُّونها بما تحتاج إليه من كلمات معبرة وأسماء لمسميات جديدة في دائرة معرفتهم الضيقة ، ولذلك فإن اللغة العامية ما فتئت تنمو وتزدهر إلى جانب اللغة الفصحى ولم تقفْ قطُّ عاجزةً عن تسمية الأدوات الجديدة ووضع المصطلحات الضرورية لمستحدثات الحضارة .

من بين هذه المختارات التي جاءت نتيجة لعمل السليقة اللغوية عند الأجيال الحديثة كلماتٌ توفرت لها الصحة والسلامة مثل :

الفنّان : أطلقه العرب الأولون على الحمار الوحشي لتفننه في العدو ، ثم جاء العرب المحدثون فأطلقوه على الشخص الموهوب بهبة فنية من شعر أو تمثيل أو موسيقى .. والذي حدث أن كثيرا من الكتاب والأدباء المحافظين تجنبوه في تعبيرهم ، فمنهم من يقول : فني ، ومنهم من يقول : مَفَنّ ، ولكن كثرة الاستعمال فرضت كلمة « الفنان » على الجميع لاسيّما وأنها مُخرّجَةٌ على القواعد العربية مثل حدّاد وبنّاء وعطّار . ولا يخفى أنها أكثر دورانا على الألسنة من فني ومفن . فضلا عن تخصيص « فني » بالخبير في صناعة أو علم ، لذلك تقبل الجمهور كلمة « فنان » تقبلا حسنا . وقد أدخلته لجنة

المعجم الوسيط في المعجم ، دون آن تضع أية علامة بإزائه مما يدل على اعتباره لفظا عربيا أصيلا .

كذلك القدّيس : مأخوذ من القُدْس بمعنى الطهر والنزاهة ، ويبدو أن نصارى العرب هم الذين وضعوه عندهم بمنزلة الوليّ عند المسلمين . والكلمات كثيرة على وزنه مثل : سجيل ومريخ وقسيس وهي كلمات معرّبة ، وهناك صفات مثل ، صدّيق وسِكّيت وشرّيب وسكّير . فالقديس إذن لفظة محدثة ، ومقيسة على ما ورد من هذا الوزن . وقد أقرها أيضا المعجم الوسيط باعتبارها لفظا عربيا أصيلا .

كذلك مِزْيان : صيغة مبالغة من الزين مثل مفضال ومعطاء ، وهو يكثر في لسان أهل المغرب بمعنى حسن وجيد .

وهناك أيضا « الطيارة » وهي مثال لما توفقت فيه السليقة أكثر من توفق الخبرة ، فان الأقلام المثقفة جرت على استعمال الطائرة ، ولا يكاد أحد يكتب الطيارة . وشركات الطيران والصحف في إعلاناتها إنما تعبر بالطائرات . وذلك — وإن يكن صحيحا — إلا أن أحدا لا يُماري في أنّ « الطيارة » التي تجري على ألسنة الجماهير أقوى دلالة وأكثر تعبيرا ، فإنها تدلّ على الكثرة والمبالغة بصيغتها ، في حين أن الطائرة إنما تدل على مجرد الوصف . وما أشبهها بالسيارة التي لم يقل فيها أحد « السائرة » فلماذا قلنا السيارة ولم نقل الطيارة ؟ ولماذا قلنا الطائرة ولم نقل السائرة مثلا ؟

وهناك ألفاظ كثيرة للحياة العامة هي من عمل السليقة عند العرب المحدثين مثل : الميزانية ، الاقتصاد ، الجريدة ، قلم التحرير ، الجمعية ، الادارة ، المسرح ، التمثيلية ، المقهى ، الملعب ، العمارة ، الشقة ، الكشافة ، الجوالة ، طابع البريد ، الخريطة الجغرافية ، الاستئناف ، المحامي ، الكلية ، الجامعة ، المتحف .. هذه وغيرها مما يُعدّ بالمئات من ألفاظ الحياة العامة . ومما لا شك فيه أن هذه الألفاظ قد اشترك في وضعها أشخاص معينون من صحفيين وتراجمة

وعلماء وهيئات لغوية متخصصة ، ولكن الكثْرة الكاثرة منها إنّما هذبه الذوق العام والاستعمال الواسع النطاق ، وهذا هو عمل السليقة ، وهكذا كان الوضع العربي الأول يعمل ، ثم يتلقى الجمهور عمله بالقبول أو الرفض .

كذلك من عمل السليقة هذه المصادرُ العديدةُ منذ فجر النهضة العربية ، منها ما كان على طريقة المصدر الصناعي للدلالة على نظرية أو مذهب مثل : الفوضوية ، والاشتراكية ، والوصولية ، والانتهازية ، والحاسيّة .. الخ ، ومنها ما كان اشتقاقا من الاسم الجامد مثل : تمصير وسودنة ومغربة ومثل : تأقلم وتطور واستغراب واستشراق ، مما يدل على أن سليقتنا اللغوية ما تزال تعمل ، وأنّ عملها لم يتوقف أبدا .

* * *

ومن أطرف المناقشات التي دارت بين علماء لغتنا الجميلة ، تلك التي دارت في مستهل هذا القرن حول معنى : الفقير والمسكين ، أيهما الذي لا مال له ، وأيهما أسوأ حالا من الآخر .

والطريف أنهم اختلفوا وتنذاك على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن المسكين أسوأ حالا من الفقير ، لأن الفقير هو الذي له قدرٌ ضئيل من العيش ، والمسكين هو الذي لا شيء له .

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بالآية الكريمة : أو مسكينا ذا متربة .. (أي المطروح على التراب من شدة الاحتياج) .

وقالوا في تفسير قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » : الفقير هو الذي لا يسأل الناس ، والمسكين أجهدُ منه أي أسوأ منه حالا ، والبائس أجهدهم أي أشقهم وأتعسهم حالا ..

فهناك إذن ثلاث مراتب تبدأ بالفقير فالمسكين فالبائس .

والقول الثاني : أن الفقير هو الذي لا شيء له وأن المسكين هو من له قدرٌ ضئيل من العيش لا يكفيه .

واستدل أصحاب هذا الرأي بقوله تعالى : أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر .

ولأنّ الله تعالى بدأ بالفقير في آية الزكاة : إنما الصدقات للفقراء . وهو يدل على الاهتمام بشأن الفقير في الحاجة .. ولاستعاذة النبي من الفقر مع قوله : اللهم أحيِني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني مع المساكين . ولأن الفقير مشتقٌ من فقار الظهر ، فكأن الحاجة قد كسرت فقار ظهره .

والقول الثالث: أنّ المسكين والفقير من صنف واحد ، وإنما ذكرت الصفتان في آية : إنما الصدقات .. الخ تأكيدا للأمر ..

وقالوا : إنّ الفقير هو الذي لا شيء له وإنّ المسكين مثله . ويرى بعض العلماء المعاصرين أنّ المسكين أفضلُ معنىً من الفقير في الماديات والأدبيات والدينيات .

* * *

تُرى : أيُّ الأسلوبين أدل على التواضع وعدم الاعتداد بالنفس : ان تقول وأنت تتحدث عن نفسك : أنا أرى كذا — مستعملا ضمير المفرد « أنا » ، أو أن تقول : نحن نرى كذا مستعملا ضمير الجمع « نحن » ؟

الشائع في لغتنا الجميلة أن استعمال المتكلم لضمير الجمع في التعبير عن نفسه فيه تعظيمٌ للنفس ، كأنْ يقول : نحن نرى كذا ، ونحن نفعل كذا ، وقد رأينا كذا .

لكن الطريف أن بعض علماء لغتنا الجميلة يرون أن استعمال المتكلم المفرد لضمير الجماعة إنما يُشعر بالتواضع خلاف المعهود من أنه يكون لتعظيم النفس..

وأن افراد الضمير فيه تأكيد للذات وتعظيم للنفس . عندما يقول القائل : أنا أرى كذا ، وأنا أفعل كذا .

ويرون أن هذا هو ما جرت عليه أساليب العرب المحدثين . فأنت تقول مثلا : تجيء عندنا ونزورك . فتكون مقبولة أكثر من قولك : تجيء عندي وأزورك .. كأنهم يستشعرون بأن المتكلم لما استعان بغيره أصبح بريئا من الأنانيـــة .

كذلك فان استعمال المتكلم لضمير الجمع بدلاً من ضمير المفرد يدلُّ على إظهار التعاطف مع المخاطب تخفيفاً لقسوة التكلم عن النفس ، فعندما يتكلم المتكلم في مجال الخطابة أو الحديث إلى الجماهير ويقول : نحن نرى كذا .. فإنه لا يتواضع فقط ، بل هو يشرك معه سامعيه في الرأي بدلا من فرضه عليهم .

إنّ هذا الأسلوب البلاغي من أساليب لغتنا الجميلة هو أسلوب عصري ، مبني على قاعدة نفسية معروفة تتلخص في أن المتكلم يبذل ما يستطيع لجلب السامع إلى جانبه بإشراكه معه في الحكم بدلاً من فرضه عليه ، فأنت تشرك المستمع معك في الموضوع عندما تقول له : نحن نرى كذا ونحب كذا ونوافق على كذا .. وتجانب التواضع عندما تقول : أنا أرى كذا وأحب كذا وأوافق على كذا !

* * *

دلالاتٌ جديدة لكلماتٍ قديمة :

والمتتبع لتاريخ الكلمات في لغتنا الجميلة يرى أنّ كثيراً منها قد حدث له ــ على مرّ الزمان ــ ما يُسمّى بالتحول المعنوي ، وهو أن تكتسب الكلمة معنى جديدا غير معناها الأصلي القديم ، ويشيع عنها هذا المعنى الجديد بكثرة الاستعمال حتى ليُنْسى المعنى الأول ولا يكاد يذكره أحد .

من هذه الكلمات كلمة « الكُفْر »، فالمعنى الأصلي للكلمة في اللغة العربية هو التغطية .. ثم اكتسبت الكلمة في ظل الدعوة الاسلامية معنى جديدا هو الإلحاد أو الانكار ..

وكلمة « التوقيــع » : معناها الأصلي في اللغة « التأثير » فأصبحت تطلق على وضع اسم الكاتب على ما يكتبهُ للدّلالة على أنه منسوب إليه .

وكلمة « المقامة » : معناها الأصلي المكان أو المجلس ، ثم تحوّل معنى الكلمة للدلالة على نوعٍ من القصص المسجوع شاع في تاريخنا الأدبي — حقْبةً من الزمانْ — ومن مشاهير كُتّابه الحريري والهمذاني .

وكلمة « الدولة » : معناها الأصلي : تقلّب الزمن وتغيّر الحال . ونستعملها نحن الآن للدلالة على الملك أو الحكومة أو السلطة الحاكمة .

وكلمة « القطار » : معناها الأصلي صف مقطور الجمال . لكنها أصبحت تدل على مركبات السكة الحديديه .

وكلمة « السجادة » : معناها الأصلي : ما يسجد عليه وقت الصلاة ثم اتسع معناها فأصبحت تدل على البساط ؛ دون نظر إلى معنى الصلاة في ذاتــه .

وكلمة « النظم » : معناها الأصلي جمع اللؤلؤ في سلك . لكنها أصبحت شائعة بعد ذلك في معنى « نظم الشعر » أي كتابته .

وكلمة « النحو » : معناها الأصلي القصد أو الجهة . ثم استعيرت الكلمة للدلالة على علم العربية المعروف : علم النحو .

وكلمة « المضيفة » : معناها الأصليّ من تستقبل الضيوف في المنزل فأصبحت تطلق على الفتاة التي تعتني بركاب الطائرات .

وكلمة «الحضارة» : معناها الأصلي ضد البداوة ، ثم أصبح يفهم منها الآن

معنى المدنية أو العمران أو التقدم الاجتماعي والعلمي والصناعي ..

وغيرها كثير من الكلمات التي تحوّل معناها الأصلي وتغير ، واكتسب دلالات جديدة ، خاصة في المجالات العلمية والدينية والاجتماعية ، وهي دلالات مكتسبة نتيجة لتطور الحياة وامتداد رحلة الانسان في الزمان .

ويقولون إنّ الذهن العربي لدى أجدادنا القدماء — تحقيقاً لنزعته إلى الابداع وتحرّراً من التقيّد بالاسم الشائع المألوف — كان يُجدّد صفات المسمى بمشتقات أي بأسماء لها نفس المعنى والدلالة ، أشبه ما تكون بصورة شعرية ، وهي في حقيقتها ليست مترادفات وإنما هي قائمة بذاتها ، لكل منها دلالة جديدة متفردة .

فمثلا : الأسد : مأخوذ من قولهم ساد ، سيادة . ومن أسمائه : السيد أي من يحمي الذمار ، وساد مأخوذ من سدّ بمعنى أغلق حماه على الغير .

والليث : من القوة والشدة ، والغضنفر : من غضن ونفر ، غضن : التثني والتوتّر ، ونفر : يفيد النفور .. والهيثم : من هثَم أي دقّه وسحَقه . والإصْبح : بالنظر إلى طلعته الوضيئة الوجه .

والورد : بالنظر إلى لونه .

والضرغام : من أضر وأرغم وهي من الشجاعة والاقدام .

والسبع : أي المفترس من الحيوان .

كذلك الفرس : فرس من فرّ بمعنى طار ، أي سريع العدو . وحصان : من حصن ، فكأن صاحبه يتحصن به من الاعداء . وجواد : أي كريم بمعنى أنه يقدم على المخاطر ويبذل نفسه في الاقدام .

والمزكى : أي النجيب من الخيل .

والسابح : بالنظر إلى شكل حركته السريع في الركض .

والضامر : بالنسبة إلى بنيان جسمه ، والأجرد : بالنسبة إلى شعره ، والأقب : أي المرتفع بالنسبة إلى قوامه ، والكميتْ : بالنسبة إلى لونه أي الذي يضرب إلى الحمرة .

من أسماء السيف : القسّام – من قسم ، والفيصل : من فصل ، والقاطع : من قطع ، والماضي : أي السريع القطع .والصقيل : من صقل ، والباتر والبتار : من بتر أي قطع بشدة ، والحسام : من الحسْم ، والذكر : بالنسبة إلى صلابته وفعله .

وهناك أيضا بعض الأمثلة التي نجدها أكثر استعمالا وشيوعا فمثلا :

ابن : من بنى وترمز إلى البناء والبنيان .

وأخ : من آخى وهي تشير إلى الرحم المشترك .

وعم : من عم الشيء أي مثل الجماعة كلها .

وخال : من خال فلان على أهله أي تدبر أمرهم .

وجد : من جد في عين القوم أي ساد وعظم .

* * *

لكلّ عصرٍ ذوق ومقاييس :

ويقول الدكتور زكي مبارك :

يختلف الذوق في تقدير مواطن الجمال من عصر إلى عصر ، وهذا أمر طبيعي ، ذلك أن لكلّ عصر مزاجه ومقاييسه وبيئاته التي تختلف عن سواه ، ما كان يسيغه القدماء ويعتبرونه مفرطا في الجمال قد لا نجده نحن الآن كذلك ، و بنفس القدر ، أو ربما أصبحنا الآن نجد الجمال في نقيضه تماما .

ويصدق هذا على التعابير الأدبية في لغتنا الجميلة .. فمنها تعابير شاعت

لدى القدماء ، ولكنها لكثرة ما استعملت ودارت على الألسنة والأقلام أدركها الإبتذال .

فالناس قديما استجادوا واستحسنوا قول الشاعر الهذلي :

وإذا المنيّةُ أنشبَت أظفارَهـــا

ألفيْتَ كلَّ تميمـــةٍ لا تنفـــعُ

ووقفوا طويلا عند بلاغة التعبير الذي وُفّق إليه الشاعر عندما قال : أنشبت المنيةُ أظفارها .. ثم أصبح هذا التعبير مُبتذلاً لكثرة الاستعمال وتغيّرِ الذوق من عصر إلى عصر ، بحيث أصبح يتحاشاه الشعراء والكتاب .

ومثله تعبير : استشعر الندم ، وتعبير : حَذْوكَ النّعْلَ بالنعل .. مع أن القدماء استجادوا واستحسنوا قول عمر بْن أبي ربيعة :

فلمّا تلاقينـــا عرفتُ الذي بهـــا

كمثْل الذي بي حَذْوَك النّعْلَ بالنعلِ

كذلك تعبير : « نؤوم الضحى » كان من أجمل ما توصف به المرأة العربية قديما ، لأنه يرمز إلى المرأة المُدلّلة المرفهة المكسال لكنه أصبح اليوم من سَقَط المتاعِ .. (أي غير مستحسن أو لائق) فقد تغيرت المفاهيم والأذواق ولم يعد نومُ المرأة حتى وقت الضحى صفةً مستحبّة فيها حتى يصفها الشعراء بأنها نؤوم الضحى .

ومثل هذا التعبير تعابير أخرى كانت ترتبط ارتباطا وثيقا بالبيئة العربية — في المجتمع العربي القديم — مثل : فلان كثير الرماد كنايةً عن الكرم (لأن مواقده دائمة الامتلاء بالرماد) ومثل : جبان الكلب . أي أنَّ كلبه لا ينبح الضيوف والطارقين كناية عن الكرم ومثلها تعبير : مهزول الفصيل .. مع أنها جميعا كانت من أطيب الصفات في شعر من قال :

وما يكُ فيَّ من عيبٍ فإنّي
جبانُ الكلبِ مهزولُ الفصيل

كذلك كلمة النسوان كانت قديما حلوة الوقع في قول الشاعر :

فوالله ما أدري أزيدتْ ملاحةً
وحُسْناً من النسوان أم ليس لي عقْلُ

ولكنها اليوم على ألسنتنا وأقلامنا كلمة هجاء ولا تؤدي في الذوق ما تؤديه كلمة نساء .

* * *

يبقى بعد ذلك أن نقول إنَّ من التعابير الأدبية ما يبقى ويُتاح له الاستمرار والدوران ، لأنه يدخل في باب المبتكر من الصور والأخيلة ولاحتوائه على عنصر الصدق الذي يُضْفي عليه دوْماً حياة متجددة .

نتأمل مثلا هذه المقطوعة من شعر ابن هانيء الأندلسي يصف فيها زهرة رمان قُطفت قبل عقدها واكتمالها .. فيقول :

وبنت أيْكٍ كالشباب النّضْرِ — كأنها بين الغصُون الخُضْرِ
جنّانُ بازٍ أو جنانُ صقر — قد خلّفتهُ أمّه بوكْرِ
كأنما سحّت دَماً من نحْرِ — أو نبتت في تُربةٍ من جمرِ
أو سُقيت بجدول من خمرِ — لو كفَّ عنها الدهر صرْفَ الدهر
جاءت كمثل النهد فوق الصدر — تفترُّ عن مثل الشفاه الحُمْرِ
في مثل طعم الوصل بعد الهجر

فالتشبيهات والصفات في هذه المقطوعة الشعرية قديمة ، تداولها الكتاب

والشعراء ، ولكنها مع ذلك من نوادر الشعر البليغ . إن سرّ حياتها واستمرار جمالها هو هذه الروح الحيةُ المتدفقة في نفس قائلها وهو متأثرٌ بجمال هـــذه الزهرة التي قُطفت قبل الأوان .

والشاعر الأصيل هو الذي ينطقُ عن نفسه في قوة وحياة ، بحيث تبدو التعابير على لسانه وكأنّها من فيض رُوحه ومن صُنْع بيانه ، وكأنّ لم يسبقْه إليها أحدٌ من صاغة الكلام ..

• • •

من الظواهر اللغوية الحديثة — التي تشيعُ الآن في لهجاتنا العربية — ما يشير إليه الدكتور عبد الرحمن أيوب في كتابه « العربية ولهجاتها » مثل ظاهرة تداخل الصيغ الناتجة عن التداخل والتفاعل بين الفصحى والعاميات — وتتضح هـــذه الظاهرة من خلال الأمثلة التالية :

التصاق واو العطف بما بعدها مثل كلمة « ويّاك » والواضح أنها مكوّنةٌ من واو العطف وكلمة إياك أو إياه أو إياهم .. وهذه الكلمة في اللهجات العامية مُركّبةٌ من جزأين أولهما « ويّا» التي حلّت محل مع وثانيهما اللاحقة الأخيرة (كاف الخطاب أو هاء التأنيث .. الخ) .

وتستعمل ويّا مع الضمائر المتصلة ومع الأسماء حيث يقال : ويّا محمد ، ويّا الراجل .. وهذا الاستعمال لم يكن ممكنا في الفصحى بالنسبة للكلمة إيّا ..

كذلك التصاق « ياء » النداء أو التعجب مع الاسم الذي بعدها مثل التصاق « يا » مع لفظ « الله » .. فصار التركيب الجديد : « يا الله » بمعنى اذهب أو ابدأ العمل ، وهو غير « يا الله » التي بقيت فيها يا للنداء أو الاستغاثة .

وكذلك التصاق « يا » مع « ما » مكونة بذلك كلمة « ياما » المصرية وهي بمعنى كثير . ويقال في بعض مناطق مصر : عنده فلوس ياما . وأصل هـــذا التركيب « يا و ما » التعجبية في مثل التركيب الفصيح ياما أحسنه ، والتعجب هنا

من كثرة الحسن ، ويظهر أن التركيب المصري قد كان في الأصل : عنـــده ملوس « ياما » أكثرها ، ثم سقط من الاستعمال لفظ أكثرها واكتسبت « ياما » معناه .

ومثل هذه النماذج كلمة « عقبال » التي نتجت عن تداخل كلمتين هما العقبى لكم ، فاتصلت اللام في لكم مع كلمة العقبى لتكونا كلمة عقبال . التي لم تكن معروفة من قبل ..

* * *

من الكلمات التي لها وضع خاص طريف في لغتنا الجميلة كلمة « الأبد » ؛ وللعلماء والباحثين وقفة تأمل خاصة عند هذه الكلمة بالذات ..

فالأبد معناها الدائم .

والأبد هو الدهر ، وقيل : الدهر الطويل الذي ليس بمحدود .

يقول الأصفهاني : الأبد : مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان ، يقال :

زمان كذا ولا يقال : أبد كذا .

ويقول الجرجاني : الأبد : هو استمرار الوجود في أزمنة مُقدَّرة غير متناهية في جانب المستقبل .

ويقابله : الأزل ، وهو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي .

ويرد الأبد معرفا ومنكرا ..

قال سراقة بن مالك : يا رسول الله : أرأيت مُتْعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال : بل هي للأبد ..

وفي رواية : ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فقال : بل لأبد أبد ..

وفي المثل: طال الأبد على لُبدَ .. يضرب لكل ما قدم . ولُبدَ: آخر نسور لقمان .

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري مُشيداً بيوم انتصاره :

يومٌ بـه أخـذ الإسلام زينتـه
بأسْرِها ، واكتسى فخراً بـه الأبدُ

ومن معاني الأبد أيضاً : الولد الذي أتت عليه سنة .. سُمّي بذلك تفاؤلا بطول بقائه .. ويجمع أبد على آباد وأبود .

ومن جموعه أيضا : أبدون .

يقول الأصفهاني : وكان حقّه ألا يُثنّى ولا يجمع ، إذ لا يُتصور حصول أبدٍ آخر يضمّ إليه فيثنى ..

ومن الكلام المأثور عن العرب : رزقك الله عمرا طويل الآباد بعيد الآماد .

ويقول جريـر :

حيّ المنـازلَ بالأجْراعِ غيرّهـا
مرُّ السنين وآبـادٌ وآبـاد

ويقول أبو العلاء المعري :

ودفين عـلى بقايا دفـين
في طويـل الأزمان والآبـاد

وتجيء أبداً للتأكيد في الزمان الآتي إثباتاً ونفياً ، فهي مثل قط في تأكيد الزمن الماضي .

يقال : ما فعلت كذا قط .. ولا أفعله أبدا .

فمن الاثبات قوله تعالى : خالدين فيها أبدا .

ويقول عمر بن أبي ربيعة :

إذا الحب المبرح باد يَوْما
فحبّك عندنا أبداً مقيم

ومن النفي قوله تعالى :

ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم .

ويقول شاعر بني نهشل :

وليس بهلك منّا سيّدٌ أبدا
إلاّ افتلْنا غلاما سيّدا فينا

وافتلينا : أي ربينا وأنشأنا .

وأبد الآباد يقال في توكيد الامر كما يقال : أزل الآزال ، ومثله أبد الأبد ، وأبد الأبدية ، وأبد الدهر ، وأبد الأبدي ، وأبد الآبدين .

* * *

ولكلمة « أحد » في لغتنا الجميلة دوران على أكثر من صورة ، وأكثر من استعمال ودلالة . وهي تستحق بسبب هذا وقفة خاصة متأملة .

جاء في اللغة ، أحد إليه يأحد أحدا : عهد اليه . وأحّد الشيء : وحّده . وفي الحديث الشريف أن الرسول الكريم قال : أحّدْ أحد أي أشرْ بأصبع واحدة . وأحّد الله : أفرده بالعبودية له ..

وأحّد الاثنين : صيّرهما واحدا .

وأحّد العشرة : أضاف إليها واحدا فصارت أحد عشر ، تقول ، معي عشرة فأحّدْهن ..

ومنها أُحاد : يقال جاء القوم أحاد .. أي واحدا واحدا ..

والأحد : الواحد ، ومؤنثه : إحدى .

والأحد : فرد من المتعدد تقول : هذا رجل أحد ، وشيء أحد .

ويقال : فلان أحد الأحد وأحد الأحدين أي واحدٌ لا نظير له .

والجمعان : أحدان وآحاد .. والمؤنث : إحدى .

وأحد : لفظ لنفي ما يذكر معه ، فلا يستعمل إلاّ في الجحد أي الانكار لما فيه من العموم ، وفي القرآن الكريم : ولم يكن له كُفُوا أحد .

ويختص بالعاقلين ويستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث والمذكر .

وفي القرآن الكريم : فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين .

و : يا نساء النبي لستّن كأحدٍ من النساءٌ .

والأحد : اسمٌ من أسماء الله تعالى ومعناه : الواحد المتفرد بالألوهية واستحقاق العبادة .

والأحد : اليوم الذي بين السبت والاثنين .

يقال : مضى الأحد بما فيه ، والآحاد من العدد هي من واحدٍ إلى تسعة .
وخبر الآحاد عند أهل الحديث : ما لا يبلغ درجة التواتُر ويُسمّي خبر الواحد أيضا .

والأحدية : صفة الله الأحد .

• • •

من الكلمات الشائعة على اللسان كلمة « أثناء » التي نستعملها على أنها من الظروف التي تدلّ على الزمان مبنيةٌ على فتح الآخر دائماً .. والظاهر أن الذي سوّغ هذا ما يُلحظ من إفادتها معنى الزمن .

ولكننا إذا رجعنا إلى كتب النحو ومراجع اللغة ، لا نجد فيها هذا اللفظ معدودا ضمن ظروف الزمان ولا ظروف المكان .. ولم تخرج بها قواميس اللغة عن أنّ « أثناء » جمع مفرده ثِنْي أو ثَنْي ومعناه : كل شيء ثُني بعضه على بعض أطواقا .

وفي لسان العرب : أثناء الوادي : معاطفه ومحانيه . وأثناء الوشاح : ما انثنى منه ، وأثناء الثوب : تضاعيفه وطيّاته . وأثناء الليل : ساعاته وأوقاته وجاءوا في أثناء الأمر أي في خلاله .

وفي شرح المعلقات للزوْزني عند قول امرىء القيس :

إذا ما الثُريّا في السماء تعرّضــت
تعرّض أثناء الوشاح المُفصّــلِ

الأثناء : النواحي والأوساط ، وأثناء الوشاح : نواحيه ومنقطعه .

وفي مقصورة ابن دريد المشهورة :

وضرّم النأيُ المشتُّ جَــذْوةً
مــا تأتلي تسفع أثنــاء الحشا

وأثناء الحشا : ما دخل بعضه في بعض .

وعلى هذا يكون الاستعمال الصحيح لهذا اللفظ هو وروده مقروناً بحرف الجر « في » في أوله وليس عارياً منه ، وعلى أساس أنه اسمٌ مُعْرَب وليس ظَرْفاً كما نتوهم .

• • •

عن الكلمات السحرية والبلاغة العصرية :

ويقول الدكتور أمير بقطر من مقالة طريفة بعنوان « لولا الكلمات السحرية ما عرفنا نوابغ الخطباء والأدباء » :

لولا الكلمات السحرية الرائعة ، وثروة المفردات المنتقاة ، المغربلة ، المصفاة ، لما اشتهر من نعرفهم من الكتاب والشعراء والخطباء في الشرق والغرب في جميع العصور . والمفردات هي للكاتب والخطيب والشاعر والروائي والصحفي كالآلات للصانع .

وأهمُّ ما في الجملة الاسم والفعل ، غير أن الفعل قوّتُها وسلاحها وعضلها وقد يكون المعنى رصيناً ، وقد تكون الجملة متينة التركيب ولكن يعيبها فِعْل رخو هزيل .

وهناك أفعال باهتةٌ صفراء الوجوه ، فقيرة الدم ، شاحبة اللون .

وهناك أفعال تفيض حيويةً ودما واحمرارا ، قاطعة حادّة ، كسيوف شحذتْها أيدي الصياقلة .

هناك فرق بين قولك ، تقدّمت السيارة مسرعة ، واندفعت تسابق الريح ، وبين : ارتفع صوتُه في القاعة ودوّى صوته ، وبين : سمعتُه يذمّني فسكت وسمعته يذمّني فأغمضت عنه ، وبين : بحث الأمر وتقصاه ، واستجلى غوامضه وخاض عُبابه ، وبين : أكثر من سؤال الشاهد وأمطره بالأسئلة .

ومن أقوى الأفعال العربية وأشدّها بأساً : ما كان على وزن فعل وتفعّل ومشتقاتهما ، إذ أن وقعها على الآذان كوقع البارود الذي تتفجّر شحناته ، مثال ذلك : ترصَّدتُ للرجل وتعقّبتُ خطُواتِه وتقحّمتُ المخاطر ، وتفهّمْتُ الموضوع .

* * *

وتحت عنوان « البلاغة العصرية واللغة العربية » يتحدث المفكر الراحل سلامة موسى عن ضرورة تطور اللغة العربية ومتابعتها للحياة .. فيقول:

إن اللغة العربية التي يستخدمها مجتمع حيّ يجب أن تتطوّر ، ومحاولة تجميد اللغة والتزام عباراتها القديمة ، وكراهة إيجاد الكلمات الجديدة إنما تعني تجميد الأذهان وعرقلتها في التفكير الناجع ، ولو أنّ كتّاب العرب القدماء كانوا قد التزموا هذا الجمود لقصّرت اللغة في التعبير ، ولكن في اللغة العربية أكثر من ثلاثة آلاف كلمة رومانية وإغريقية وفارسية ، بالاضافة إلى المعاني الجديدة التي ألحقت بالكلمات القديمة ، فتخصصت الكلمة لمعنى معين بعد أن كانت عامة .. وهذا هو ما نفعله نحن الآن فقد خصصنا :

الدستور : للنظام الأساسي للدولة

والغـــارة : لهجوم الطائرات .

والعلـــم : للمعارف التي يمكن امتحانها بالتجربة .

والجامعة : لمجموعة كليات مستقلة في ثقافتها .

وبهذا التخصص وبإيجاد كلمات جديدة ، مرنت لغتنا بعض المرونة وخدمت مجتمعنا . ولكنا ما زلنا نلتزم عبارات مقتبسة يعافها الذهن الذكي ، ومرجع هذه العبارات تلك البلاغة العاطفية الانفعالية التي تعلمناها وغرست في نفوسنا قيمة غير صحيحة للاستعارة والمجاز ..

فما زالت صحفنا تقول :

عرض على بساط البحث	بدلا من عرض للبحث
وخاض غمار القتال	بدلا من قاتل
وحمي وطيس المعركة	بدلا من دارت المعركة
ووضعت الحرب أوزارها	بدلا من انتهت الحرب

وتعزيز أواصر الثقة	بدلا من تعزيز الثقة
وصبّ جام غضبه	بدلا من غضب
وأطلق سراحه	بدلا من أطلقه
ونتجاذب أطراف الحديث	بدلا من نتحدث

على الرغم من أن هذه الاستعارات والمجازات يمكن الاستغناء عنها دون إخلال بدقة التعبير واكتمال المعنى ، وعلى الرغم من أن بها كلمات تحتاج إلى جهد كبير لتفسيرها للصغار ، مثل : وطيس وأواصر وجام ورحى ..

* * *

وعن ألفاظ الحضارة في لغتنا الجميلة :

ويقول الأديب الكبير محمود تيمور وهو يتحدث عن موضوع ألفاظ الحضارة – أي ألفاظ الحياة العامة – وموقف اللغة الفصحى منها :

إنّ الكثرة الغالبة من ألفاظ الشئون العامة ما برحت أجنبية أو عامية ، ومصداق ذلك أن نطوف بنظرنا في حجرة استقبال أو أنحاء مطهى أو في غير ذلك مما يتجلى على مسرح الأعين ، فيستبين لنا أن الكاتب إذا تشهّى وصف ما يرى لم يستطع أن يقع على تسميات عربية دقيقة ، فإن راج له الاسم العربي الدقيق منعه من استعمال أنه نافر مهجور ..

لكنّ الكاتب على أية حال مضطر أن يصف ما في البيت وما في السوق ، وأن يتناول ما يدور من أسباب العيش ، وما يستعمله الناس من الأدوات ، وما يتناولونه في حياتهم اليومية من شئون ، ولذلك يبذل الكاتب جهده ويعالج أمره ، فيتخيّل ويتوسّل ، ويتصاعب ويتساهل ، حينا يصطنع الكلمة الفصيحة على حذر ، وآنا يقبل من الكلمات العامية ما ليس منه بُدّ ، وساعة يتخذ له

اصطلاحا جديدا يُرشحه للاستعمال ، وهو في قرارة نفسه مضطربٌ حيران ، يحاذر ألا يدرك مأربه من الإبانة ، ويخشى أن ينتقص حظه من الافصاح .

ثم يقول تيمـــور :

وفي هذه المناسبة تحضرني كلمة « البيجاما » اسما لذلك الطراز المعروف من ثياب المنزل ، فهذه الكلمة يسوغ لفظها على ألسنة الخلق ، ولكننا لا نكتبها إذا كتبناها إلا كرها ، لقد ضاق بها الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، وذلك على الرغم من انتصاره للعامية واستخدامه لجملة من تعبيراتها في كياسة وتلطف ، فكان إذا أراد التعبير عن البيجامة في معرض بيانه ، استعمل كلمة المنامة ، ولقيت الكلمة حظاً من القبول ، فتناقلها الكتاب .

لقد زاول مجمعنا اللغوي هذه الناحية ، وحاول أن يقدم أسماء عربية لمسميات تتعلق بالشئون العامة .. على أن بعضا من هذه الأسماء كُتبت له الحياة ، ولكن في أفواه الساخرين وعلى أقلام المستهزئين ، إذ وهم الناس أن المجمع الرسمي يريد أن ينتزع من الجماهير العامة لغتها الجارية على الألسن ، وأن يفرض عليها لغةً جديدة ليس لها بها عهد ، فثارت ألسنة الجماهير لما تألف ، وأبت ما هو غريب غير مألوف ..

ثم يقـــول :

روى لي الراوي عن الأديب البليغ الشيخ عبد العزيز البشري أنه زار بنك مصر فكتب مُتأنقاً يصف المبنى وما إليه ، واجتهد أن يعبر عن أرجائه وأجزائه بألفاظ من فصيح العربية ، ولم يأذن لكلمة عامية أو دخيلة أن تشوب مقاله إلا كلمة « بنك » التي أفلتت منه في عنوان المقال . فلما زار مصانع الغزل والنسيج رغب إليه عشاق أدبه في أن يكتب في صفة هذه المصانع ، فوعد ولم يُنجز وتمنّى أن يستجيب ، ولكنه لم يفعل خشية ألا تواتيه الكلمات الفصيحة بوصف الآلات والعدد .

وفيما يتصل بالكلمات الريفية يعرض الأستاذ تيمور هذه الكلمات التي نستعملها على أنها عامية بينما هي في الحقيقة كلمات فصيحة :

الدوّار . المصطبة . الجرْن . القفة . المقطف . الزكيبة . العزبة . النبوت . جبن قريش .

وهاتين الكلمتين :

خبزٌ مُرحرح وصحتها : خبز رحراح

والمدود وصحتها : المذود

ثم يقـول :

ألفاظ الحضارة أو كلمات الحياة العامة عنوانٌ مستحدث تتلخص دلالته الموضوعية في أنه يتناول المسمّيات الشائعة ، الدائرة على الألسن والأقلام ، مما يحتاج إليه الناس في جمهورهم الكبير على أوسع نطاق ، فهو يشمل المسمّيات التي يحتويها البيت والسوق ، وما نُعبّر عنه الصحيفة السيارة والكتاب في عمومه ، وما ينطلق به فم المذياع المدني والمسموع في الوصف والتصويـر والإعراب عن الفكر بوجه عام ..

وأنا واثقٌ أن الوعي اللغوي الجماهيري يفرض سلطانه مُتّجهاً إلى الفصيح ما وسعه أن يتّجه ، وأن حملة الأقلام ينفذون بتعبيرهم إلى مراكز الاعلام في الصحافة والاذاعة وغيرهما ، لا يأنسون بالدخيل ، بل يحاولون أن يجدوا في فصيح العربية ما يسدُ مسدّه ، فهم الآن يقومون في الحاضر مقام اللغويين الخُلّص الذين كانوا في الماضي ينحون هذا المنحى ، مُرشّحين ألفاظا فصيحة تستبدل بالدخيل ، بيد أن أولئك اللغويين كانوا يقدمون ألفاظهم في معرض البحث والترشيح ، أما حملة الأقلام الآن فهم يقترحون الألفاظ ويضعونها موضع التنفيذ باستعمالهم لها فيما يكتبون ..

وهذه مختارات من ألفاظ الحضارة التي يقترح الأديب الكبير محمود تيمور استعمالها ــ باعتبارها ألفاظا فصيحة ــ بدلا من الألفاظ الشائعة :

اللون الأدكن أو القاتم	بدلا من	اللون الغامق
اللون الفاقع	بدلا من	اللون الصارخ
الجاذبية الشخصية	بدلا من	السكس أبيل
الاستطلاع	بدلا من	الريبورتاج .
الموسوعة أو دائرة المعارف	بدلا من	الانسكلوبيديا
العلامة التجارية أو السمة التجارية	بدلا من	الماركة في (السلع والبضائع) أو الاسم التجاري
الجيوب الهوائية أوالفجوات الهوائيات	بدلا من	المطبات الهوائية
السفينة الصهريجية أو ناقلة الزيت	بدلا من	التَنكر
العباءة الجامعية أو الرداء الجامعي	بدلا من	الروب الجامعي
الزجاجة العازلة	بدلا من	الترْمس
الحوّامة أو العمودية	بدلا من	الهليكوبتر
الحُلّة أو البذلة	بدلا من	البدلة
السترة	بدلا من	الجاكتة
الصدار	بدلا من	الصديري
الملفعة أو اللفاع	بدلا من	الكوفية
المنامة	بدلا من	البيجامة
الشواهق (جمع شاهقة)	بدلا من	ناطحات السحاب
المجالس أو الندوات	بدلا من	الصالونات الخاصة
اللافتة	بدلا من	اليافطة
المبتكرات أو الأزياء الحديثة	بدلا من	النوفوتيه
عارضة الأزياء	بدلا من	المانيكان

الشبابك	بدلا من	التريكو
اللُمَع	بدلا من	الترتــر
الخمار أو اللّفاع	بدلا من	الايشارب
الشرفــة	بدلا من	البلكون
المستشرف	بدلا من	التراس
المصراع	بدلا من	الدرفة أو الضلفة
المتراس	بدلا من	الترباس
المشبك	بدلا من	الشنكل
قاعة المعيشة	بدلا من	ليفنجروم
المهــد	بدلا من	سرير الطفل
الوســادة	بدلا من	المخدّة
الحشيّــة	بدلا من	المرتبــة
المُتكــأ	بدلا من	الكنبــة
الأريكة	بدلا من	الشيز لونج
الثوب الحاسر أو المنحسر	بدلا من	الميني جيب
النريات أو المنثورات	بدلا من	الخردوات

(خردوات : فارسية الأصل ، والخردة عند الفرس هي ما صغر ودق من الأشياء)

البدلات أو الأقراص البديلة	بدلا من	الماركات والفيش (في الأندية والمشارب وغيرها)
النوبــة	بدلا من	الوردية

(وهي ساعات العمل التي يقوم فيها العامل بأداء واجبه الرسمي)

قائمــة الكتب	بدلا من	الكتالوج
قاعة الضيافــة	بدلا من	السلاملك

حريم الدار	بدلا من	الحراملك
سجلّ الصور	بدلا من	الألبوم
الساعة التلقائية	بدلا من	الساعة الأوتوماتيك
الساعة التقويمية	بدلا من	ساعة بنتيجة
الساعة التوقيعية	بدلا من	ساعة الامضاء
الميقاتـة	بدلا من	الكرونومتر
جهاز التسجيل	بدلا من	الريكوردر
التحويلـة	بدلا من	السويتش

(وفي بعض البلاد العربية تستعمل كلمة البدّالة وهي مرادفة للتحويلة)
مصباح الحائط أو مصباح حائطي بدلا من أبليك .

* * *

ونختم هذه الصفحات عن ألفاظ الحضارة في لغتنا الجميلة بهذه السطور للأديب الكبير محمود تيمور ، الذي يكاد يكون الوحيد من بين أدبائنا الكبار الذي أولى هذا الموضوع العظيم الأهمية عنايته واهتمامه عاما بعد عام ، ثم جمع حصاد ابتكاراته ومقترحاته ومسمّياته في معجم لألفاظ الحضارة ، يقول :

إنّ حفَظة اللغة أفراد أو مجمعيين قد أبلوا بلاءً حسنا في ميدان مقاومة العامي والدخيل من كلمات الحياة العامة وابتداع ألفاظ فِصاحٍ تحلُّ محلَّ الألفاظ العامية أو الأعجمية ، ومن ذلك ما اقترحوه من كلمات :

مَرْحى	بدلا من	برافـو
البهْو	بدلا من	الصالون
الوشاح	بدلا من	الكردون
القُفّاز	بدلا من	الجوانتي

البطاقة	بدلا من	الكارت
المعطف	بدلا من	البالطو

ومن أمثلة الكلمات الاجتماعية الجديدة ، اللجنة والمنظمة والهيئة والمؤسسة والرابطة والنقابة ..

ومن أمثلة الأسماء العسكرية : المُدرَّعة والمدمرة والدبابة والطرادةوالغواصة والنسافة والنفاثة ..

بل وفي ساحة اللعبة الرياضية – لعبة كرة القدم – مثلا ، جدّ اللاعبون ومن إليهم في تسمية ما يتصل بهذه اللعبة من ظواهرها وأدواتها بأسماء عربية ، تغلّبت إلى شأوٍ بعيد على مقابلاتها من الكلمات الأجنبية التي اقترنت بتلك اللعبة في طروئها على حياتنا الحديثة ، فكلمة « الفوت بول » فازت عليها « كرة القدم » ، وكلمة « التيم » صرعتها كلمة الفرقة أو الفريق ، وكذلك كان النصر للكلمات العربية في المباراة بين كلمات الهاف تايم والجول والباك والريفري وكلمات الشوط والهدف والظهير والحكم ..

* * *

وفي النهضة الحديثة التي توزّعت البلاد العربية قامت حركة الاصلاح اللغوي أو حركة الافصاح لمقاومة الدخيل ، وللتعبير عن مقتضيات الحضارة وأدواتها ومعانيها .

هنا ، قام صراع ظاهر أو خفي لمحاولة تغليب كلمة على كلمة مما يقترحه اللغويون أو يستعمله الكتاب .

وإذا نظرنا إلى نتائج هذا الصراع وجدْنا ائتلافا واختلافا ، وجدنا وَحْدةً وتعــددا ..

وهذه أمثلة من المؤتلف المتوحد ، ومن المختلف المتعدد : من المؤتلف (أي من المتفق عليه في سائر البلاد العربية) :

الطيارة — القطار — السيارة — المحكمة — الفندق — البرق — البريد — الجواز (جواز السفر) — الحقيبة — القفاز — الجريدة — المجلة — الآلة الكاتبة — المعهد — الجامعة — الكلية — المستشفى — الصيدلية — الاذاعة .

ومن المختلف :

في مصر يقولون	: مواعيد العمل
في غيرها يقولون	: الـــدوام
في مصر يقولون	: الاختصاصات
في غيرها يقولون	: الصلاحيات
في مصر يقولون	: المرسوم
في بعض البلاد العربية يقولون	: الظهير
في مصر يقولون	: الإظلام
في بعض البلاد العربية يقولون	: التعتيم
في مصر يقولون	: مكتبة الأدوات الكتابية أو الوراقة
في بعض البلاد العربية يقولون	: القرطاسية
في مصر يقولون	: التّرقيـــة
في بعض البلاد العربية يقولون	: التّرفيع
في مصر يقولون	: الحلة (للبدلة)
في بعض البلاد العربية يقولون	: الكسوة
في مصر يقولون	: المبتكرات (للموضة)
في تونس مثلا يقولون	: خرج الموسم
في مصر يقولون	: الطريق والشارع
في تونس مثلا يقولون	: الجادّة والنّهـج
في مصر يقولون	: الثلاجة
في بعض البلاد العربية يقولون	: البرّاد

في مصر يقولون : التأشيرة (لجواز السفر)
في بعض البلاد العربية يقولون : الوسمة

* * *

فما رأيك أيها القارىء فيما تثيره هذه السطور ؟

* * *

الفصل الرابع

جديد أقره المجمع

من بين الموضوعات اللغوية الطريفة التي ناقشها مجمع اللغة العربية في مؤتمره الأخير ما أثاره بعض الأعضاء من أن اللغة لم تثبت للفعل « هرب » من المصادر إلاّ الهرب والمَهْرب والهربان ، أما الهُروب فهو مصدر غير صحيح ، رغم أنه شائع الاستعمال على ألسنة الكثيرين وأقلامهم .

وقد ناقشت لجنة الأصول – بالمجمع – هذا الموضوع ، وراجعت ما أثبتته معجمات اللغة من مصادر هذا الفعل فوجدت في المصباح نصّاً على الهروب في قوله : هرب يهرب هربا وهروبا : فرّ .

ثم انتهت بعد المناقشة الى القرار التالي :

يذهب بعض الدارسين إلى تخطئة استعمال الهروب مصدراً لهرب على أساس أن هذا المصدر ليس من بين المصادر التي أثبتتها كتب اللغة لهذا الفعل ..

وترى اللجنة استنادا إلى النص على الهروب في أفعال ابن القطاع وإلى إثبات صاحب المصباح له أن استعمال الهروب مصدراً لهرب صحيح لا حرج فيه .

• • •

كما دارت مناقشات في بعض جلسات المجمع حول الفعل «صمد» ومعانيه ومصادره ، واتجه معظمها إلى رفض استعماله بالمعنى الشائع ، واستبدال ألفاظ أخرى به كالثّبات .. وخلاصة الرأي في هذا أن الثبات بعيد عن معناه ، وأن الصمود ليس من مصادره ، وإنما معناه يدور بين أصلين : القصد والصلابة ، ومصدره الصمد وحده ، أما الصمود فلا تعرفه كتب اللغة ، ولعله تحريف السّمود ..

وقد درست لجنة الأصول هذا الكلام ، واستمعت إلى ما نقله الأستاذ محمد خلف الله — عضو المجمع — عن القاموس والمقاييس ، وأيضا ما نقله الأستاذ عباس حسن — عضو المجمع — عن ابن الأثير ، فرأت أن معنى الثبات غير بعيد عن الصلابة التي هي أحد أصلي الصمد ، أما الصمود فليس من الخطأ جعلُه مصدراً لصمد ، لأن الفعول مصدر قياسي لفعل اللازم المفتوح العين في بعض دلالاتـــه .

وانتهت اللجنة إلى القرار التالي :

يُخطّىء بعض الباحثين استعمال الصمود بمعنى الثبات مصدراً لصمد بمعنى ثبت بناء على أن صمد مصدره الصمد ومعناه القصد أو الصلابة .

وقد درست اللجنة ذلك وراجعت ما في القاموس والمقاييس ، وأيضا ما ما ذكره ابن الأثير ، فوقفت على أنّ معنى الثبات غير بعيد عن الصلابة التي هي أحد أصلي الصمد ، كما أن الصمود ليس من الخطأ جعلُه مصدراً لصمد ، ولأنّ الفعول مصدر قياسي لفعل اللازم المفتوح العين في بعض دلالاته .

* * *

ومن أطرف المناقشات الغوية التي دارت في مجمع اللغة العربية مناقشة أثارها الأستاذ محمد بهجت الأثري عضو المجمع حول الفعل أنجب الذي يخطىء البعض — في رأيه — فيستعملونه مُتعدّياً بمعنى ولد ، وهذا — في رأيه — ما

تأباه اللغة الصحيحة لأن فيها غيره من الأفعال : ولده ونجله ونسله ، ويرى أن أنجب في اللغة فعل لازم معناه ولد له أولاد نجباء .

وقد عرضت لجنة الأصول بالمجمع لهذا الرأي وناقشته ، وكان من رأي الأستاذ عباس حسن — عضو المجمع — أن الفعل أنجب بهذا المعنى صحيح فصيح يؤيده السماع والقياس .

أما السماع فقد ورد في شعر مَنْ يُحتجُّ به .

وأما القياس فلأن نَجبَ ثلاثي لازم ، وكل ثلاثي لازم يصح تعديتـــه بـــالهمزة .

وانتهت لجنة الأصول الى القرار التالي :

يخطىء بعض الباحثين استعمال أنجب متعديا بنفسه بمعنى ولد ، في مثل : أنجب فلان ولدا ..

وترى اللجنة جواز ذلك لما يأتي :

أولا : وروده في الشعر العربي في قول حفص الأموي :

أنجبـــــه السوابق الكـــرام من منجباتٍ ما لهـــــن ذام

وثانيا : ورد في اللغة نجُب — بضم الجيم — أي اتصف بالكرم والحسب ، فإذا قلنا : أنجب الرجل بإدخال الهمزة على هذا الفعل صار متعديا وكان معناه : ولد ولدا حسيبا كريما ..

ولا مانع بعد ذلك من أن يكون المراد : ولد ولداً .. مطلقاً من باب تعميم الخاص . وإذن : فالفعل أنجب كما نستعمله نحن صحيح فصيح .

* * *

وفي إحدى جلسات مؤتمر الدورة السابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية

ألقى الأستاذ عبدالله كنون ــ عضو المجمع ــ بحثا طريفا بعنوان الكاف التمثيلية عرض فيها لما شاع على ألسنة المعاصرين وفي كتاباتهم من نحو قولهم : فلان كسفير يمثل بلاده خير تمثيل ..

وبعد أن استعرض أقوال النحاة في الكاف ومعانيها التي ترد عليها انتهى إلى أن الكاف ــ وهي للتشبيه ــ قد يراد بها ما يراد بكلمة « مثل » أي ذات الشخص والشخص نفسه .

فاذا قلنا فلان كسفير .. فالمراد فلان نفسه ، وإنّما عدلنا إلى هذا التعبير قَصْدَ الكناية التي هي أبلغ من التصريح .

أو أن تكون الكاف بمعنى « مثل » فقولنا : فلان كأديب له شهرة عالمية معناه : فلان مِثْلَ أديب بنصب كلمة « مثل » على الحال ولعله أن يكون أبلغ من قولنا : فلان أديبا .

وقد درست لجنة الأصول بالمجمع هذا التعبير ، وأيّدت الأستاذ الباحث في أن مثل قولنا : فلانٌ كسفير ، أثر من آثار الترجمة ، وبعد مناقشة مستفيضة انتهت إلى القرار التالي :

تجري أقلام الكتاب المعاصرين بنحو قولهم : فلان كأديب ، وهو كسفير .. وأنا كعربي .. الخ .

وترى اللجنة أنّ مثل هذا تعبير فصيح يجري على الضوابط العامة وأن الكاف فيه للتشبيه أو للتعليل أو زائدة .

• • •

ومن القضايا اللغوية الطريفة التي ناقشتها لجنة الأصول بمجمع اللغة العربية : باء الجر ودخولها على المتروك أو المأخوذ والرأي الشائع أنها لا تدخل إلا على المتروك .. .

وكان للأستاذ عباس حسن ــ عضو المجمع ــ رأي آخر يوضحه في هذه السطور :

من معاني باء الجر أن تكون بمعنى كلمة بدل بحيث يصح إحلال هذه الكلمة محل الباء كقوله تعالى : أولئك الذين اشترو ا الضلالة بالهدى ..

وقولهم : ما يرضيني بعملي عمل آخر .

وتدخل الباء على الشيء المتروك كما في المثالين السابقين . ويصح دخولها على المأخوذ ، فقد جاء في « المصباح المنير » مادة بدل ما نصه :

أبدلته بكذا إبدالاً : نحّيْت الأول وجعلت الثاني مكانه .

وفي مختار الصحاح ما نصّه في مادة بدل : الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ، إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر .

وجاء في تاج العروس مادة بدل ما نصّه :

قال ثعلب : يقال أبدلت الخاتم بالحلقة إذا نحيت هذا وجعلت هذه مكانه . وبدلت الخاتم بالحلقة إذا أذبته وسويته حلقة ، وبدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها وجعلتها خاتما .

وهذا مثال آخر لدخول الباء على المأخوذ هو قول طفيل لما أسلم :

وبدّل طالعي نحسي بسعْد

ثم يوضح الأستاذ عباس حسن رأيه فيقول :

هذا ولا فرق بين أن يكون ما تعلق به الجار والمجرور هو الفعل بَدّل ، وفروعه وما تصرفه منه ، أم غيره بقرينة ، كبعض الأمثلة التي سبقت ، وكقول عروة بن الورد :

فلو أني شهدت أبا سعاد
غداةَ غدًا بمهجته يفوق
فديت بنفسه نفسي ومالي
ولا آلوك إلاّ ما أطيق

يريد ، فديت بنفسي ومالي نفسه : أي قدمتهما فداء له ، وبدلا منه .

والطريف بعد هذا كله ، أن مؤتمر المجمع لم يأخذ بوجهة النظر هذه — من أن الباء تدخل على المتروك والمأخوذ معا — ورأى أنها تتعارض مع الضبط الذي يراد للغة ، والدقة التي يجب أن تتسم بها قواعدها وقوانينها العامة ، خاصة وأن الأخطر في وظيفة الباء — في اللغة العربية — أنها تدخل على المتروك فيقال : بعْتُ كذا بكذا واشتريت كذا بكذا

وهكذا يبقى الرأي الشائع في هذه المسألة هو الرأيْ الصواب ، وهو أن الباء لا تدخل إلاّ على المتروك أو المحذوف ، فإن قلت مثلا : بدلت السهرة بالنوم ..

فالنوم هو المتروك أو المحذوف في هذه العبارة وليس السهر .

* * *

ومما يذكر لمجمع اللغة العربية — بالخير — من بين جهوده في السنوات الأخيرة ، أنه فصّح كثيرا من الألفاظ المولدة التي شاعت على الألسنة والأقلام الحديثة ، والتي كان يُظنّ خطؤها مثل قولهم : تكاتفوا على الأمر أي تعاضدوا وهي غير مثبتة في كتب اللغة ومثل : ساهم فلان في الأمر أي شارك فيه غيره ومثل كلمة : التشويش وهي التهويش في بعض كتب اللغة ، أي اختلاط الأمور بعضها ببعض .

ومثل كلمة : مطار بمعنى محطة الطيران وهي « المطير » بحسب القاعدة الصرفية

والفنجان : لما نستعمله لشرب الشاي أو القهوة .

وبالكاد : وهي في الأصل اللغوي : الكأد : أي الشدة ، تقول : بالكاد استطعت أن أفعل ذلك .

وكما فصّح المجمع بعض الألفاظ فقد فصّح بعض المصطلحات المولدة ، كاستعمال لفظة « أثناء » غير مجرورة بفي نحو ، تكلم أثناء الجلسة أو في أثنائها ..

وكقولهم : فعلت كذا رغما عنه ..

وكان النقاد يُخطّئون هذا التعبير ويقولون إن الصواب هو فعلت كذا بالرغم منه أو على الرغم منه ، بحجة أن حذف حرف الجر ليس قياسا .. على حين أنه يمكن تصويب قول الكتاب على أساس حذف حرف الجر أو على أساس أن رغم : مفعول مطلق ..

وكان قرار المجمع على الصورة التالية :

يستعمل الكتاب هذا التعبير : فعلت كذا رغم كذا أو رغما عن كذا .. والمسموع الفصيح في مثل هذا هو : فعلت كذا على الرغم من كذا أو برغم كذا . ويمكن أن يعلل استعمال : فعلت كذا رغم كذا أو رغما عن كذا : بأنّ رغم هنا حال مصدر بمعنى اسم الفاعل أو منصوب على نَزع الخافض (أي حذف حرف الجر) ، كذلك يمكن تعليل استعمال « عن » مكان « من » بأن الأولى تنوب مناب الأخرى ، فإنّ « عن » توافق « من » وترادفها وتكون بمعناها كما صرّح بذلك النحاة .

وعلى هذا يكون قولنا ، فعلت كذا رغما عنه صحيحا فصيحا .

• • •

وتساهل المجمع في جمع فعلة الصحيحة على فَعْلات وفَعَلاَت بالسكون وبالفتح على السواء .. كما أقرّ المجمع جواز إدخال هل الاستفهامية على الجملة الاسمية نحو : هل هذا الأمر يعجبك ؟

والأصل إدخالها على الجملة الفعلية فقط

• • •

ومن أحدث ما أقرّه المجمع ــ تمشيا مع خطته في إجازة استعمال بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم ، وتمشيا مع

مقتضيات الحاجة العلمية : هذه الأفعال التي جرى بها الاستعمال — لمجيء الاشتقاق على وزن عربي صحيح ولكونه سائغا في الذوق :

بَسْتَر : وهو مأخوذ من باستير صاحب الطريقة الخاصة في التعقيم .

بَلْوَر : من البلور .. وهو معرّب قديما

تلفن : من التليفون

فبرك : من الفابريكة والمراد بالفعل : صنع الشيء بواسطة الآلة

جَبَّس : من الجبس (وهو من مواد البناء) معرّب قديما .

كهرب من الكهرباء : وقد أقرّ المجمع تعريب الاسم .

دخّن من الدخان : (يطلقه المحدثون على التبغ) والأصل في تعبير دخن : دخّن على إحراقه وهو من قبيل المجاز المرسل .

تجلّط : يقولون تجلط الدم من الجلطة (وهي في الأصل الجرعة الخاثرة من اللبن الرائب) ثم توسّع فيها المحدثون فأطلقوها من باب التشبيه على الجرعة من الدم إذا تخثّر وقد اشتقوا منها تجلط إذا تخثّر .

بالاضافة إلى هذا كله هذه المختارات من مصطلحات العلوم الفلسفية والاجتماعية التي أقرّها المجمع :

اللاأدرية : أي إنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة .

الارتيابية (أي مذهب الشكاك) وهو قول من التزموا الشك منهجا قائما وحالا مستقرة ، فيترددون دائما بين الاثبات والنفي .

الماهية : أي مقومات الشيء ومجموع صفاته التي لا يمكن بدونها تصوره .

الهويّة : أي حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره

الجوهر : ما قام بنفسه .

العَرَض : ما قام بغيره .

الخصيصة والمخصص والمشخص : الصفة التي تميز الشيء وتحدده .

الخليقـــة : ما عليه المرء من استعداد عقلي أو وجداني .

المُعطيَات : مجموعة القضايا المسلّمة في علم من العلوم، فهي مساويـــة للمسلّمات ..

* * *

ومن التعابير الحديثة التي نستعملها الآن في حياتنا اليومية ألفاظ وتراكيب ناقشها المجمع في جلساته المتعاقبة وأقر صحتها وصوابها ..

من بينها كلمة التهريج : يقول قرار المجمع : كلمة التهريج عربيـــة صحيحة فقد ورد في اللغة : هرج في الحديث أي خلط فيه ، وتستعمل هذه الكلمة في التخليط سواء أكان تخليطاً للإضحاك أو تخليطا في المنطق والرأي ..

وكلمة أكوام : يقول قرار المجمع : كلمة أكوام صحيحة جمْعا لكوم ، فقد ورد في اللغة ما يدل على أن الكوم اسم جنس يطلق على أكثر من واحد وأنّ مفرده كومة وورد فيها ما يؤخذ منه أن الكوم قد يطلق ويراد منه الشيء الواحد وجمعه أكوام ..

وفي الحديث : حتى رأيت كوْمين من طعام وثياب .

وهذا دليل على صحة كوم وجمعه أكوام .

كذلك كلمة « الطراز » بمعنى النموذج كلمة صحيحة استنادا إلى ما جاء في شعر حسان بن ثابت في قوله :

بيض الوجوه كريمة أحسابهـــم

شم الأنوف من الطـــراز الأول

كذلك تعبير تأكّدت من كذا . في اللغة : أكّدت الأمر فتأكّد الأمر .

والأمر مؤكد ، وأصل المادة معناه : الربط والشد ..

وبعض الكتاب يقولون : تأكدت من الشيء وأنا متأكد منه ، ونحو ذلك ، والصواب أن يقال : تأكد لي كذا ، أو تأكد عندي كذا .

ونظر المجمع في تعبير « وبالتالي » في مثل قولهم : « فعل كذا وبالتالي يستحق كذا ». ورأى أنه تعبير دخيل وإن لم يكن خاطئا ، واختار المجمع أن يهجر هذا الأسلوب ويستعمل مكانه : فعل كذا ومن ثَمّ أو من ثَمة يستحق كذا أو يستغنى عنه بالفاء أو يقال : وبالتلو يستحق كذا .

ونظر المجمع في تعبير : جاء فورا ودفع الثمن فورا وجاء فور الحين وفور الساعة ، ولاحظ أنّ التعبير المألوف في العربية جاء من فوره بمعنى جاء ولم يُعرِّج أو جاء من ساعته وجاء على الفور أي لا على التّراخي .

ورأى المجمع أنه يصح أن يقال : جاء فوْراً ودفع الثمن فورا ، على الحالية والفور : هو السرعة وعدم التّراخي .

* * *

ومن أطرف المناقشات التي سجلتها محاضر جلسات مجمع اللغة العربية في القاهرة لعام ١٩٣٨ المناقشة حول تعريب المصطلحات الموسيقية ، ومن بينها المصطلح بَشرف ، فقد رأى المجمع أول الأمر أن يوضع له لفظة المَلَل وهو أول المطر .

وعندما تساءل بعض الأعضاء عن أصل كلمة « بشرف » أجيب بأن هذه الكلمة فارسية الأصل وهي « بيش راو » ثم استعملها الترك في لغتهم بتصرف قليل فصارت في لغتهم « بشرف » ومعناها إلى الأمام .

ثم اقترح بعض الأعضاء تعريبها بكلمة المقدمة ، فرد على ذلك بأن المقدمة كلمة عامة تصلح لأي شيء .. ثم أضاف بعض الأعضاء أن الصدر الأعظم – في عصر الدولة العثمانية – كان يتقدمه في مسيره من يفسح له الطريق

وكان هذا الشخص يسمى بشرويش أي المقدم ..

وأخيرا ، وبعد هذه المناقشة الطريفة ، استقر رأي المجمع على تعريف المصطلح الموسيقي « بشرف » بالمطلع والذي يقابل الكلمةالأجنبية introduction

• • •

ومن الطريف أيضا أن أعضاء المجمع كانوا مختلفين حول صحة كلمة «كفء» في تعبير من يقول : فلان كفء لكذا ، وكان رأي الكثيرين منهم — منذ سنوات — أنها لا تستعمل في لغتنا بهذا المعنى (معنى الكفاية) ، حتى عرض عليهم الشاعر الراحل علي الجارم — عضو المجمع في ذلك الحين — نصّاً من القرن الخامس يدل على أن هذه الكلمة تستعمل صحيحة في الكفاية .

وهذا هو النص :

قال ابن الحريري صاحب المقامات ، حينما ولي ظهر الدين محمد بن الحسن الوزارة للمقتدي مهنئا :

هنيئا لك الفخر ، فافخرْ هنيّا
كما قد رَزقت مكانا عليّا
وبتّ كآبائك الأكرمين
لدسْت الوزارة كُفُؤاً رضيا
تحمّلْتَ أعباءها يافعا
كما أوتي الحُكْمَ يحيى صبيّاً

وقد ورد هذا النص في كتاب الفخري في الآداب السلطانية ، والمقتدى — الذي كان المهنأ بهذه الأبيات وزيرا له — بويع بالخلافة سنة أربعمائة وسبع من الهجرة .

ثم يقول الأستاذ علي الجارم : إن كلمة «كفء» صحيحه فصيحة ، يقال ·
فلان كفء لعمله أي عظيم فيه .

• • •

ومن بين البحوث اللغوية الطريفة التي ألقيت أمام مؤتمر مجمع اللغة العربية ما تقدم به الدكتور اسحاق موسى الحسيني عضو المجمع ، حول تعريب بعض الكلمات الأجنبية التي شاعت في لغتنا المحكية بحيث تكون دالةً على المراد بصورة لا تؤديها بها لفظة أخرى ، في دقة دلالتها ، مع مرونتها بالصورة التي تُمكّنُنا من أن نشتق منها ما تتطلبه الضرورة من مصدر وفعل واسم فاعل واسم مفعول قياساً على الألفاظ العربية الأصلية . ومعنى هذا الكلام أن نأخذ الكلمة الأجنبية فنعربَها ونصوغَ منها كلماتٍ عربيّةً تلائم الاستعمال .

مثال ذلك كلمة بنسلين : ولا يمكن ترجمتها أو وضع مقابلٍ لها في لغتنا ، ويمكننا أن نشتق منها — أي نصوغ منها كلمات أخرى — فنقول بنْسَلَه ، يبنسلُه ، بنسلةً ، ومُبنسَل ، ومُبَنْسِل ..

وكلمة بَسْتَر : وهي مشتقة من اسم عَلَمٍ هو لويس باستير ، واللفظة شائعة على الألسنة ومكتوبة على زجاجات اللبن المبستر ، وهي مما لا يمكن ترجمته ، ويمكن أن نشتق منها فنقول ، بستر ، يبستر ، بسترة ، ومُبَسْتِر ، ومُبستَر ، ولا يمكن أن تحل محلها لفظة عقّم ، لأن التعقيم هو قتل ما في الشيء من جراثيم ، بأية وسيلة ، في حين تحدث البسترة بغلي السائل حتى درجة حرارة معيّنة .

كذلك تليفزيون : وهو اسم شائع شيوعا لا سبيل إلى الغائه ويمكن أن نشتق منه فنقول : تلفز ، يتلفز ، تلفزةً ، ومُتلفِز ومُتلْفَزْ ..

وكلمة تليفون : وهي أفضل من لفظة « هاتف » المستعملة في بعض البلاد العربية لأن هاتف تُستعملَ اسما فحسب ، ولا يُشتقّ منها فعل ، في حين يمكننا

أن نشتق من كلمة تليفون فنقول : تلفن ، يتلفن ، تلفنة ، ومُتلفِن ، ومتلفن إليه ، وجمع هذه الألفاظ تدور على الألسنة بيسر ..

كذلك بلور : يقال في الكتابة المعاصرة ، تبلورت الفكرة في رأسه ، وفكرة غير مبلورة .. ويمكن أن يُشتقّ منها فيقال ، بلور يبلور بلورة وتبلور يتبلور تبلورا ومُبلوِر ومُتبلوِر ومتبلوَر والمعنى : صار شفافا كالبلور .

كذلك كلمة إسفلت المأخوذة عن الانجليزية والمشتقة بدورها من اليونانية « اسفلتوس » وهي شائعة كلاما وكتابة ، ويجوز أن يقال : سفلت الشارع يسفلته ، سفلتة ومُسفلت ومُسفلَت بمعنى وضع الاسفلت عليه

ومثلها كلمة اسمنت ويمكن أن يشتق منها فيقال : سَمْنَتَ يُسمْنتَ .

وكلمة فبرك يفبرك من الفابريكة وجبّس من الجبس ، وشحّم السيارة من الشحم ، جاء في المعاجم : شحم القوم أي أطعمهم الشحم .

وكلمة كهرباء التي يمكن أن نشتق منها فنقول ، كهرب يكهرب مُكهرِب ومُكهرَب ومتكهرب ..

* * *

وقد علّق الدكتور طه حسين – رئيس المجمع – على هذا البحث الطريف بقولـه :

إنّ من خصائص المجامع اللغوية أن تكون بطيئة وأن تكون متمنعة أشدّ التمنع قبل أن تتخذ قرارا ، فالأناة خير دائما والعجلة من الشيطان ، وأحب أن أذكركم بهذه المناسبة أن كلمة « شيك » يقال إن أصلها عربي هو « صك » وقد استعملت كثيرا عند الانجليز واستعملها الفرنسيون أكثر من خمسين عاما قبل أن يقرّها المجمع اللغوي الفرنسيّ ويوافق على أن توجد في معجمه .

* * *

ومن الأبحاث اللغوية الطريفة أيضا أمام المجمع ، البحث الذي ألقاه الأستاذ عبد القادر المغربي عن تنازع اللغات في بعض الكلمات ، وكيف أن هناك كلمات كثيرة شائعة في لهجاتنا وعلى ألسنتنا وأقلامنا ، تتنازعها لغات شتّى .. فالبعض يقول إنها عربية الأصل ، وآخرون ينسبونها إلى لغات أجنبية .. وهكذا ..

من هذه الكلمات كلمة « صوفي »

وهي صفة للرجل المعروف بالزهد والتقشف والعزوف عن الحياة الدنيا ، واللفظة منسوبة إلى لبْسِ الصوف أو الصُفّة التي كانت في المسجد النبوي على عهد الرسول الكريم ، أو أن الصوفيّ في الصفا بمعنى صفاء القلب من كدر العالم ، فالكلمة على أية حال عربية الأصل .

لكن علماء اليونان يقولون : إنّ الصوفي كلمة من أصل يوناني ، مشتقة من كلمة سوفا بمعنى الحكمة ، كما أن كلمة فيلسوف من « فيلا سوفا » بمعنى محب الحكمة .

كذلك كلمة « قهوة » لفظ عربي سُمّي به حب البن المعروف ، مأخوذ اسمه من اسم القهوة التي معناها في اللغة العربية : الخمرة ، اشتقها العرب من فعل : أقهى يقهي أي ذهب بشهوة الطعام ، والخمرة والبن لهما هذا التأثير .

والنابغة يقول : وقهوة مزة راووقُها خضِل

يقصد بالقهوة : الخمر ..

لكن علماء الحبشية يقولون : إن القهوة كلمة حبشية مأخوذ اسمها من كلمة « كفا » وهي اسم لولاية من ولايات الحبشة هي موطن البن الأصلي ،والفرنسيون يسمون القهوة cafe باسم موطنها الحبشي .

وكلمة « قاني » من الألفاظ العربية المؤكدة للألوان وهي تؤكد اللون الأحمر ، يقال : أحمر قان كما يقال أسود حالك وأصفر فاقع وأبيض ناصع .. هكذا

يقول العرب ، فهي عندهم كلمة عربية فصيحة لا أثر للعجمة فيها . لكن يقولون إنّ « قانى » تركية الأصل نسبة إلى «قان» بمعنى الدم عندهم ، فأحمر قان هي بمعنى أحمر دموي ..

وينكر العرب هذا ويثبتون أن قانى عربي مشتق من « القنوء » بمعنى الحمرة يقال : لحيةٌ قانية أي حمراء ، وقنأ لحيته وقناها إذا خضبها بالحناء فأصبحت حمراء . ثم يقولون : إن الكلمة التركية « قان » بمعنى الدم قد أخذت من «قانى» العربيـــة .

وكذلك سارة زوجة ابراهيم الخليل ، اسم عربي مخفّف الراء من كلمة سارة وهي اسم فاعل من السرور ، أي أن المسماة بسارّة تسر القلوب . ويقول العبريون : بل هي لفظة عربية مخففة الراء ومعناها السيدة أو الأميرة ، ومنها كلمة sœur الفرنسية بمعنى أخت ومنها أيضا كلمة سير « Sir » أحد ألقاب الشرف في اللغة الانجليزية .

ويقول علماء العربية إنّ « قارة » بمعنى القطعة الكبيرة من سطح الكرة الأرضية هي لفظ عربي أصيل من الفعل قرّ ، بمعنى ثبت واستقرّ .

ويقول الأتراك ، بل هي لفظة تركية أصلها « قره » بمعنى الأرض اليابسة ، وإن العرب قد أخذوا قارة من التركية كما أخذوا كلمة بوغاز اسما للمضيق بين بحريْن من التركية أيضا ، وأصل معنى البوغاز في التركية : الحلْق والحلقوم .

وهي جميعا أمثلة لهذا الصراع بين اللغات حول حقيقة أصل بعض الكلمات والمفردات .. فما رأي القارىء في هذا الصراع الطريف ؟

• • •

الفصل الخامس

كيف كانت نظرتهم الى الجمال في لغتنا الجميلة

معنى « البيان » عند القدماء :

في مقدمة كتاب «البيان العربي» يقول الدكتور بدوي طبانه وهو يشرح معنى كلمة « البيان » في اللغة العربية :

مادة البيان في أصل استعمالها عند أصحاب اللغة تدلُّ على الانكشاف والوضوح . قالوا : بان الشيء يبين بياناً أي اتّضح . فهو بيّن . وأبان الشيء فهو بيّن . وأبان الشيء فهو مُبين ، وأبنْتُه أنا أي أوضحته ، واستبان الشيء : ظهر ، واستبنتُه أنا : عرَفتُه، والتبيين : الإيضاح . قال الله تعالى : « وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومِه ليُبيِّن لهم » .

وقال الشاعر عبدالله بن أبي رواحة في مدح الرسول الكريم :

لــو لم تكنْ فيه آياتٌ مُبيّنــــة
كــانت فصاحتُــه تُنْبيك بالخبَر

وفي المثل : قد بيّن الصبح لذي عينين أي : تبيّن .

واستخدموا البيان في معنى اللّسن والفصاحة ، وقالوا : فلانٌ أبيض من فلان أي أفصح منه وأوضح بيانا ..

قال المُسيّب بنُ عَلَس :

ولأنتَ أجْــودُ بالعطــاء من الريّانِ لمّا جادَ بالقطرِ
ولأنتَ أشجعُ من أسامَــة إذ نقعَ الصرّاخ ولجّ في الذُّعْرِ
ولأنتَ أبيَنُ حين تنطقُ من لُقمانَ لما عيَّ بالأمْــرِ

الرّيان : السحاب الممتلىء بالمطر . أُسامة : من أسماء الأسد

وجاء في الحديث الشريف : « إنَّ من البيان لسحرا » ، في معرض الإفحام وقوة الحُجّة والقدرة على الاقناع وإثارة الاعجاب وشدة وقع الكلام في النفس .

على أن إطلاق « البيان » على الفصاحة واللّسن إنما هو لما فيهما من الاقتدار على الكشف والابانة عن المعاني والخواطر الكامنة في النفس ، ويكون معناه حينئذ مقابلا لمعنى العي والحَصَر ، والعجزُ عن الإفصاح عند الحاجة إلى هذا الإفصاح ..

• • •

عن السجْع المطبوع :

كان للعرب القدماء فنونٌ من التصرف في الكلام ، وإرساله مسجوعاً مرّة ، مرسلا أخرى ، آنا يميل إلى الايجاز ، وآنا آخر يفيض في إطنــــاب واستِرســـال .

ويظنُّ البعض أن السجع الذي التزمه بعض القدماء هو كُلّه مذموم مستكره، مصنوع غير مطبوع ، مع أنَّ الكثير من آثار البلاغة وعيونها قد التزم هذا

السجع ولم يفقد جماله وروعته .. ومثلُه الأعلى ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف . .

عن سجع القرآن يقول الدكتور أحمد الحوفي من مقال له بعنوان « سجع القرآن فريد » :

لم يتنبه علماؤنا القدماء الذين أنكروا السجع في القرآن الكريم إلى أنَّ السجع القرآني فريد ، يمتاز بأنه يُحقّق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق ، ويُخضع كلاً منهما للآخر في إعجاز بيّن لا يُنكر ..

ذلك أنَّ سجعاته متعانقة مع ما قبلها ، مُستقرّةٌ في مواضعها ، كفيلةٌ بروعة المعنى ، وجمال الصورة ، واتّزان المنطق ، وتجانس الجَرْس ، وحلاوة الوقــع ..

ولهذا ، ترشد الآيات إلى فواصلها ، ويتوقّعُها من له عِرْقٌ في الأدب وذوق ..

قال زيد بن ثابت : أملى علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ولقد خَلَقْنا الإنسان من سُلالة من طين ثم جعلْناه نُطفةً في قرارٍ مكين ثم خلقْنا النُّطفةَ عَلَقةً ، فخلقنا العلَقة مُضْغة ، فخلقنا المُضْغَة عظاماً ، فكسوْنا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر .

فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين .

فضحك رسول الله ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟

فقال : بها ختمت .

أي أن الآية ختمت فعلا بهذ ه العبارة .

والحقُّ أن سجعات القرآن الكريم تمتاز بخصائص كثيرة أعجزت البلغاء أن يحاكوها .. فمن هذه الخصائص :

أنها نازلة في مواضعها ، ملائمةٌ لمواقعها ، بريئةٌ من التكلف ، تتبع فيها الألفاظ المعاني ، وتنهض خبَبْر نهوضٍ بما تتطلبه هذه المعاني ، فلا نقْصَ ولا زيادة ولا تكرار لضرورة السجع .

يقول تعالى : « قال نوح ربِّ إنهم عصوْني واتّبعوا من لم يزد ه مالُه وولده إلاّ خسارا .. ومكروا مكرا كُبّارا .

فنجد أن كُبّارا بمعنى كبير ، ولكنها جاءت هنا للدلالة على هذا المعنى ولتحقيق السجْع ، على حين أن كلمة « كبير » وردت في آية أخرى مُحقّقةً للمعنى وللسجْع معا في قوله تعالى :

إنَّ ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنّه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإيّاكم ، إنَّ قتْلَهم كان خِطْئاً كبيرا » .

وكذلك جاءت كلمة « كفار » صيغة مبالغة من الكفر في آية ، وجاء كلمة « كفور » صيغة مبالغة من الكفر في آية ثانية ..

قال تعالى : وسخّر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإنْ تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها ، إنَّ الانسان لظلوم كفار » .

وقال سبحانــه :

ولئن أذقْنا الانسان منّا رحمةً ثمَّ نزعناها منه إنّه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضرّاء مسّتْه ليقولنَّ ذهب السيئات عنّي ، إنه لفرح فخور.

* * *

إنَّ من أجمل ما يُميّزَ نظام الفواصل القرآنية أنه يتطلب الوقوف على رؤوس الآيات لتبرز موسيقاها ، وتستريح الآذان إلى سماعها ، كما تستريح إلى القوافي الشعرية .

فاذا قرأ القارىء سورة الرحمن أحسّ بجمال الوقوف على رؤوس الآيات ، وأحسّ بموسيقى الفواصل حين يقف عليها جميعا بما يُسمّى السكون ، قائلا :

« الرحمن ، علمَ القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان » ..

فهذه الآيات لم تُختم بحرف النون عبثا ، أو دون غاية معينة ، بل كان هذا تحقيقا للجمال الموسيقي في الفواصل ، فكأنما كانت رؤوس الآيات قوافي شعرية تطمئن إليها الأذن ، وتجد النفوس لذّة في ترددها وتوقّع هذا التردّد بين فاصلة وأخرى ..

* * *

فإذا انتقلنا إلى نماذج السجع الرفيع في الحديث الشريف طالعتنا هذه المختارات :

يقول الرسول الكريم : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام .

ويقول في دعاء له :

اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع ، ومن طمع في غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع ، وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة ، ومن الكسل والبخل ، ومن الجبن والهرم ، ومن أن أردّ إلى أرذل العمر ..

وفي أحاديث الرسول الكريم عبارات تجري مجرى السجع من حيث مُراعاة الوزن وإن لم تراع فيها القافية ، كقوله عليه الصلاة والسلام : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي وتلمّ بها شعثي ، وتردّ بها ألفتي ، وتصلح بها ديني ، وتحفظ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتُزكّي

بها عملي ، وتُبيِّض بها وجهي ، وتُلهمني بها رشدي ، وتعصمني بها من كل سوء .

فإذا جاوزنا عصر النبوة وصدر الاسلام إلى العصر الأموي ، رأينا الخطباء كذلك يسجعون ، ورأينا هشام بن عبد الملك يقول :

« إنّا لنعرف الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نعطي تبذيرا ، وما نمنع تقتيرا ، وما نحن إلا خزّان الله في بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإن أذن أعطينا ، وإذا منع أبينا ، ولو كان كلُّ قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحق ما جبهنا قائلا ، ولا رددنا سائلا » ..

كذلك فقد كانت لغة الزهاد والنساك في العصر الأموي – في الأغلب – مسجوعة ، ومن شواهد ذلك قول الحسن البصري يوصي عمر بن عبد العزيز :

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعثر ما في القبور وحُصّل ما في الصدور ، وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فتبوءَ بأوزارك ، وأوزارهم مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالهم مع أثقالك ، ولا يغرنّك الذين ينعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيّبات من دنياهم بإذهاب طيّباتك في آخرتك ..

ويقول علماؤنا – الذين عنوا بدراسة البلاغة العربية لدى القدماء – إنّ فن السجع قد غلب على أكثر ما أثر عن الأعراب ، من كلمات بليغة ، وتعابير مشرقة .

حدّث الأصمعي أنه سمع أعرابيا يذكر قومه فقال :

كانوا إذا اصطفّوا تحت القتام ، ومطرت بينهم السهام ، يشربون الحمام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغرت فاها الحتوف .

وعذلت إعرابيّة أباها في إتلاف ماله بالجود فقالت :

حَبْسُ المال أنفع للعيال من بَذْل الوجه في السؤال ، فقد قلّ النَوال (أي العطاء) ، وكثر البخال ، وقد أتلفْتَ الطارف والتّلاد ، وبقيت تطلب ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ليومٍ يسرّه ، أوشك أن يسعى فيما يضره .

ووعظ أعرابي رجلا فقال :

ويْحَك ، إنّ فلانا وان ضحك إليك .. فانه يضحك منك ، ولئن أظهر الشفقة عليك ، إنّ عقاربه لَتسْري إليك ، فإنْ لم تتّخذه عَدوّك في علانيتك ، فلا تجعلْه صديقا في سريرتك .

ويقولون إنّ هناك فنا من القول التُزم فيه السجع على نمط كلام الأعراب وهو وصايا الآباء للأبناء ، وهو فنٌ قديم عرفه أهل الجاهلية ، ومن شواهده في العصر الاسلامي قول عبدالله بن شداد :

أيْ بُنيّ : لا تَزْهدَنّ في معروف ، فإنّ الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكمْ من راغب قد كان مرغوبا إليه ، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه ، وان سمعت كلمةً من حاسد ، فكنْ كأنّك لست بالشاهد ، وان غُلبتَ يوما على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإنّ الكريم يحتال ، والدنيّ عيّال ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً أقل ما تكون في الباطن مالا ..

وقال عَلْقمة لبيد لابنه :

يا بُنيّ : إذا نزغتْك إلى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من إذا صحبْته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإنْ أصابتك خَصاصةٌ مانك ، وإنْ قُلْتَ صدّق قولك ، وإن صُلْتَ شدّ صولتك ، وان مددْت يدك بفضلٍ مدّها ، وإنْ رأى منك حسنةً عدّها ، وان سألته أعطاك ، وإن سكتّ عنه

ابتداك ، وإن نزلَتْ بك إحدى المُلمّات آساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق (أي السبل) ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإنْ حاول أمراً آمرك (أي : شاورك) وانْ تنازعتما شيئاً آثرك ..

ويروي لنا التاريخ الأدبي أنّ الوافدين على الخلفاء — في القديم — كانوا يؤْثرون السجع في الكلام ، كأنّ الخطب التي يُلقونها نوع من القصيد ..

يقول عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه العجّاج : يا عجاج .. بلغني أنك لا تقدر على الهجاء ..

فقال : يا أمير المؤمنين : من قدر على تشييد الأبنية ، أمكنه إخرابُ الأخْبيــة .

قال : فما يمنعك من ذلك ؟

قال : إنّ لنا عزّاً يمنعنا من أن نُظلم ، وانّ لنا حِلْما يمنعنا من أن نَظْلِم . فعلام الهجاء ؟

فقال عبد الملك : لكلماتُك أشعرُ من شِعْرك .. فأنّى لك عزٌ يمنعُك من أن تظلم ؟

قال : الأدب البارع والفهم الناصع ..

قال : فما العِلْم الذي يمنعك من أن تظلم ؟

فقال : الأدب المستطرف والطبع التالد ..

* * *

ومن بين أدبائنا العرب القدماء — الذين فُتنوا بالسجع — من لم يقف عنده فحسب ، بل إنّ بعضهم كان يتكلّف أحياناً بالبديع — من طباق وجناس وتورية — والبديع أدخل في الصنعة البلاغية من السجع ..

يقول العتابي مخاطبا مالك بن طوق :

أيها الأمير : إنّ عشيرك من أحسن عشْرتك ، وإنّ ابن عمك من عمّك خبْره ، وإنّ قريبك من قرب منك نفعه ، وإنّ أحب الناس إليك ، من كان أخفّهم ثُقْلا عليك ..

ومن أوضح الدلائل على ذيوع بدعة السجع في القرن الثالث الهجري ما يتمثل في حرص ابن داود على وضع عناوين الفصول في بعض كُتُبه مسجوعة ، حتى لقد أصبح السجع في ذلك العهد — فنّاً يؤلف ويستطاب :

وهذه نماذج من تلك العناوين الطريفة المسجوعة :

من كثرت لحظاته ، دامت حسراته .
العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهما أمير
من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه
ليس بلبيب ، من لم يصفْ ما بِه لطبيب
التذلل للحبيب ، من شيم الأديب
من طال سروره ، قصرت شهوره
من كان ظريفا ، فليكن عفيفا
من مُنع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال
بعد القلوب على قرب المزار ، أشدُّ من بعد الديار من الديار
ما عتب من اغتفر ولا أذنب من اعتذر
إذا ظهر الغدْر ، سهل الهجر
من راعه الفراق ملكه الاشتياق
ما خُلق الفراق إلا لتعذيب العشاق
من غاب قرينه ، كثر حنينه
من قدم هواه ، قويَ أساه

* * *

ويروون أن أعرابيا وقف على قوم فمنعوه ، فقال :

اللهم اشغلْنا بذكرك ، وأعذْنا من سخطك ، وأولجْنا (أي وأدخلنا) إلى عفوك ، فقد ضنّ خلقك برزقك ، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك ، وآتنا من الدنيا القَنْعان (القناعة) ، وإنْ كان كثيرها يسخطك فلا خير فيما يسخطك ..

ومن أظرف ما جاء في سؤال الأعراب وطلبهم الجود والعطاء ، هذه الكلمـــات :

أين الوجوه الصباح ، والعقول الصحاح ، والألسن الفصاح ، والأنساب الصراح ، والمكارم الرباح ، والصدور الفساح ، تُعيذني من مقامي هذا ..(أي من موقف السؤال والاحتياج) .

* * *

والطريف أن القدماء كانوا يعرفون ما للسجع من أثر في حفظ الكلام والقدرة على روايته ، وأن الكلام المنثور الخالي من الوزن والقافية صعب الحفظ والرواية ، لذلك فقد كانوا يؤثرون السجع ، ويلجأون الى الصنعة في القوافي والأوزان .

ومن أصرح ما قيل في تفضيل السجع وإيثاره ، ما قاله عبد الصمد بن الفضل وقد سئل : لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟

فأجاب ، إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والأذن لسماعه أنشط ، وهو أحقّ بالتقييد وبقلّة التلفت ، وما تكلمت بـــه العرب من جيّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره .

* * *

وهو كلام يدلُّ دلالة صريحة على أن النثر المرسل لم يحفظ منه إلا أقل القليل ، أما النثر المسجوع فقد حفظ معظمه بفضل موسيقاه وقافيته .

* * *

ويُضمّن الجاحظ – أديب العربية وشيخها الكبير – كتابه : « البيان والتبيين » مختارات من بدائع السجع وفرائده ، من بينها :

يقول عمر بن ذر : والله المستعان على ألسنة تصف ، وقلوبٍ تعرف ، وأعمال تخلف ..

ويقول عبدالله بن عباس : لا أُعطي من يعصي الرحمن ، ويطيع الشيطان ، ويقول البهتان .

وفي الحديث المأثور : يقول العبد : مالي ! وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت .

ووصف أعرابي رجلا فقال :

صغير القدر ، قصير الشبر ، ضيق الصدر ، لئيم النجر (أي الأصل) ، عظيم الكبر ، كثير الفخر .

ونظر رجل من العباد إلى بعض الملوك فقال : باب حديد ، وموت عتيد . ونزع شديد ، وسفر بعيد .

وقيل لبعض العرب : أيّ شيء أحب اليك ؟ فقال : لواء منشور ، والجلوس على السرير (كناية عن السيادة في القوم والسرير هو سرير الإمارة والملك) والسلام عليك أيها الأمير .

وقيل لآخر (وكان قد أمر بقتله فأخذ يُصلّي ويطيل في صلاته) : أجزعت من الموت ؟ فقال : إنْ أجزع فقد أرى كفنا منشورا ، وسيفا مشهورا ، وقبرا محفورا ..

ومن الأسجاع المشهورة قول أيوب بن القرية وكان قد دعي إلى الكلام فاحتبس عليه القول :

قد طال السمر ، وسقط القمر ، واشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟

فأجابه فتى من عبد القيس : قد طال الأرق ، وسقط الشفق وكثر اللثق (أي الندى) فلينطق من نطق !

* * *

عن النثر والنظم :

ويروون أن أحد الوزراء قال لأبي حيان التوحيدي .

أحبُّ أن أسمع كلاما في مراتب النظم والنثر ، وإلى أي حد ينتهيان ، وعلى أي شكل يتفقان ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأرجع بالعائدة ، وأدخل في الصناعة وأولى بالبراعة .

فأجابه أبو حيان بقوله :

النثر أصل الكلام ، والنظم فرعه ، والأصل أشرف من الفرع ، لأن جميع الناس في عامة كلامهم يقصدون النثر ، وإنما يتعرضون للنظم بداعية عارضة وسبب باعث .

ومن فضيلة النثر ، أن الوحدة فيه أظهر ، وأثرها فيه أشهر ، والتكلف منه أبعد ، وهو إلى الصفاء أقرب ، ولا توجد الوحدة غالبة على شيء إلا اذا كان ذلك دليلا على حسن الشيء وبقائه ، وبهائه ونقائه .

ومن شرف النثر أنه طبيعي ، فالإنسان لا ينطق في أول حاله من بدء طفولته إلى زمان مديد إلاّ بالنثر المتبدد ، وليس كذلك المنظوم لأنه صناعي ، ألا ترى أنه داخل في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف .

ومن خصائص النثر أنه مُنزَّهٌ عن الضرورة ، غني عن الاعتذار ، والتقديم والتأخير والحذف والتكرير .

والنثر من جانب العقل ، والنظم من جانب الحس ، ولذلك دخلت على النظم الآفة ، وغلبت عليه الضرورة ، واحتيج فيه إلى الاغضاء عما لا يجوز في النثر .

ولشرف النثر قال الله تعالى : إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا .

فلم يقل : لؤلؤا منظوما ..

ونجوم السماء منتثرة ، وإن كان انتثارها على نظام ، الا أن نظامها في حد العقل ، وانتثارها في حدّ الحس ..

وأما النظم فمن فضائله : أنه صار صناعةً برأسه ، يُطّلع بها على عجائب ما اختزن من قوة الطبع ، وشواهد القدرة ، على حين أن النثر مبذول للناطقين من خاصة وعامة .

وأن النظم لا يكون الغناء إلاّ به ، ولا يحلو الايقاع بغيره ، والغنـاء معروف الشرف ، عجيب الأثر ، ظاهر النفع في مناغاة الروح واجتلاب الطرب ، وتفريج الكرب وإثارة الهزة ، واكتساب السلوة وادكار العهد .

وأن صورة المنظوم محفوظة ، وصورة المنثور ضائعة ، وأن الشواهد لا توجد إلا فيه ، والحجج لا تؤخذ الا منه ، فالشاعر هو صاحب الحجة .

وأن للشعراء حَلْبةً ليس للبلغاء مثلها ، فاذا تتبعت جوائز الشعراء في مقاماتهم ومجالسهم وأنديتهم وجدتها خارجة عن الحصر .

* * *

وربما لوحظ أن التوحيدي دافع عن النثر بما لم يدافع بمثله عن الشعر ، ولعل سرّ ذلك أن التوحيدي كاتبٌ مفكر وناثر بليغ ، فكأنه احتج لصناعته .

* * *

يُعرّف القدماء علم البيان بأنه العلم الذي يعرفُ به إيرادُ المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه .

ومعنى الاختلاف في الوضوح أن يكون بعضُ هذه التراكيب أوضح دلالة من البعض الآخر مع وجود الوضوح في الجميع .

وقد تفنن الشعراء من قديمٍ في إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، فهم يمدحون مثلا بالكرم والشجاعة والفضيلة والعفة ، ولكنهم يتخذون لذلك أساليب متعددة وطرقا مختلفة ، تدلُّ على تمكّنهم من ناحية البيان وتمرّسهم بصناعة البلاغة العربية .

فعندما نطالع شعر المتنبي مثلا ، نجد فيه الكثير من فنون التعبير البياني عن المعنى الواحد بأساليب وطرق مختلفة ، يقول مثلا في صفة الكرم :

لم أعرف الخير إلا مذ عرفْتُ فتىً
لم يولد الجود إلاّ عند مولـــده

ويقول مرة أخرى في وصف ممدوحه بالكرم :

تمثّلـــوا حاتمـــا ولـــو عقلوا
لكنتَ في الجودِ غـــاية المثـــل

وفي المعنى نفسه يقول :

يـــا من ألوذُ بـــهِ فيما أؤمّلـــه
ومـــن أعوذ به ممـــا أحـــاذرُهُ
ومـــن توهمتُ أنّ البحر راحتـــه
جُـــوداً ، وأنّ عطاياهـــا جواهره

ويقول أيضاً :

لا تطلبنّ كريمـــا بعد رؤيتـــه
إنّ الكرام بأسخاهـــم يدأ ختموا

ويقول :

وإنَّ سجايا جودِه مثلُ جودِه
سحابٌ على كلِّ السحاب له فخرُ

• • •

عن التغويف :

ومن أبرز معالم الجمال في لغتنا الجميلة ما يُسمّيه القدماء بالتغويف ، وهو جمال التقسيم والتقطيع الموسيقي . ويقولون إنه يجيء كثيرا في شعر البحتري لما تميز به من تدفق الطبع ورقة التعبير ودماثة الأسلوب وأناقة الديباجة وصفائها وتآخي الكلمات وتوازنها في أجراس مطّردة عذبة ، كطربة كؤوس الحلي وهديل الحمام وشدو العنادل .

وقد عرّفوا التغويف بأن يُؤتى في الكلام بمعان متلائمة في جمل متقاربة المقادير أو مستويتها ..

يقول البحتري :

لي حبيبٌ قد لجَّ في الهجر جدّاً
وأعاد الصدود منهُ وأبدى

يتأبّى منْعاً وينْعمُ إسعافاً
ويدنو وَصْلاً ويبعدُ صدّاً

أتُراني مستبدلاً بك ما عشتُ
بديلاً أو واجداً منك بُدّا

حاشَ للهِ أنت أفتنُ ألحاظاً
وأحلى شكْلاً وأحسنُ قدّا

ويُمثّلون للتغويف أيضا بهذا البيت من شعر ابن زيدون :

تهْ : أحتمل ، واحتكمْ : أصبرْ ، وعزّ : أهنْ
ودِلّ : أخضعْ ، وقلْ : أسمعْ ، ومُرْ : أطعِ

ومن هذا التقطيع الموسيقي إيقاعُ أسماء مفردة على سياق واحد ، بحيث يكون كل من هذه الأسماء له معنى قائم بذاته ، مما يكون على أكبر قدر من الحسن ..

يقول المتنبي :

بم التعلّل ، لا أهــلٌ ولا وطنُ
ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكــن

ومثل تنسيق الصفات : أي أن يُذكَر الشيءُ الواحد بجملة أسماءٍ أو جملة صفات متوالية ، كقوله تعالى :

« هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمّا يشركون » .

وقوله تعالى : « يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » ..

ومنــه قولهم : فلانٌ حسن السيرة ، نقي السريرة ، طيّب الأعراق ، كريم الأخلاق ، زاهر الحسب ، حميد الشمائل ، كثير الفضائل .

ويقول ابن الفارض :

شربنــا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامــة
سكرنا بها من قبل أن يُخلقَ الكَرْمُ
يقولون لي صفها ، فأنت بوصفهــا
خبيرٌ ، أجلْ عندي بأوصافها عِلْمْ

صفاءٌ ولا ماءٌ ، ولُطفٌ ولا هــوىً
ونورٌ ولا نارٌ ، وروحٌ ولا جسْـــمُ

* * *

عن التلميح :

ومن ألوان الجمال في لغتنا الجميلة ما يُسميه القدماء «بالتلميح »، وهو عند البديعيين إشارةُ الشاعر أو الكاتب في فحوى كلامه إلى آية أو حديث أو قصة أو حكمة أو مثل أو مسألة علمية أو غير ذلك مما يكون لطيف الموقع ، جليل القدر ، عظيم الفائدة . وقد يجيء في صورة الأحاجي والألغاز على ألسنة ذوي اللّسن والذكاء والألمعية والجواب الحاضر والمفاكهة والتندّر ، مما هو حقيق أن يحفظ ويروى ويؤثر .

يروون أن السريَّ الرفاء كان من مداح سيف الدولة الحمداني ، فجرى يوما في مجلسه ذكر المتنبي ، فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه وتكريمه ، فقال الرفّاء – وكان يغار من تفوق المتنبي وعظمة شاعريته – : أشتهي أن ينتخب الأمير قصيدةً عن غُرَرِ قصائده لأعارضها ، فيتحقق بذلك أنه أركبه في غير سرجــه ..

فقال سيف الدولة : عارضْ قصيدته القافيّة التي مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد ومــــا لقي
وللحبِّ ما لم يبْقَ مني وما بقــي

قال الرفّاء : فقرأت القصيدة فلم أجدها من جيّد شعر المتنبي ، غير أني رأيته يقول فيها :

بلغتُ بسيف الدولة النور رتبة
أنرتُ بها ما بينْ غربٍ ومشرقِ

إذا شاء أن يلهو بلحيـة أحمقٍ
أراه غباري ثم قال له الحقِ

فعلمت أن سيف الدولة يشير إلى هذا المعنى ، فأحجمت عن معارضته ، وعجبت لقدرة سيف الدولة على التلميح .

* * *

عن التذييل :

ومن أجمل ما يشير إليه علماء البلاغة العربية — وهم يتناولون تراثنا الشعري بالدراسة والتأمل والتحليل — ما يسمونه « بالتذييل » ويعنون به إطلاق الشاعر للمثل أو الحكمة يختتم بها بيته الشعري فيكون له وقعٌ عميق وصدى قويّ في النفس والقلب ، كما يكون أسرع إلى تركيز المعنى المطلوب وأنفذ في إيصاله وتبليغه .

يقول أبو فراس الحمداني :

تهونُ علينا في المعالي نفوسنا
ومن يخطب الحسناء لم يُغلها المَهْرُ

ويقول أبو الطيب المتنبي :

وحيدٌ من الخلاّنِ في كلّ بلدة
إذا عظُمَ المطلوب قلَّ المساعدُ

بذا قضت الأيامُ ما بيْن أهلها
مصائبُ قومٍ عنْد قومٍ فوائدُ

وما أيسر أن نتعرف على هذه الحكم الثلاث التي تسري مسرى الأمثال والتي اختتمت بها الأبيات السابقة مما أكسبها جمالا وروعة ، وجعل لختامها وقعا جليلا ، ترتاح له الأذن ، ويهتز له القلب والعقل .

ويقول الشاعر القديم – وجميع أبيات مقطوعته مختومة بهذا التذييل البديع الذي يتضمن مثلا أو حكمة :

يُحيّرني مَنْ طرفه لحظاته
وهل في الورى من لا يُحيّره السِّحْرُ

أرى منه جَمْراً مُضرما في جوانحي
وكلُّ محبٍ في جوانحه جَمْرُ

لقد عيل في الأحزانِ صبري كُلّه
ومن حالف الأحزان خالفه الصبرُ

عشقتَ وقلبي ضاع في العشق سرُّه
وفي أيِّ قلبٍ يجمعُ العشقُ والسرُّ ؟

ويلاحظ البلاغيون أن بعض الشعراء قد يتفننون في التذييل ، فيأتون في البيت الواحد بمثلين أو حكمتين :

يقول لبيد :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل
وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل

ويقول أبو فراس الحمداني :

ومن لم يُوقّ اللهَ فهو مُضيّعٌ
ومن لم يُعزّ اللهُ فهو ذليلُ

ويقول المتنبي :

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا ظهرُ سابحٍ
وخيرُ جليسٍ في الزمان كتاب

ويقول :

وكلُّ امرىء يولي الجميلَ مُحبَّبُ
وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزَّ طيبُ

• • •

عن التغاير :

ومن ألوان الجمال في لغتنا الجميلة ما يسميه البلاغيون « بالتغاير » ، وهو أن يغاير المتكلم الناس فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمّه ، أو يذموه فيمدحه

ولهذا قيل إن التغاير هو تحسين القبيح وتقبيح الحسن . ويضربون له مثلا ببيتيْ منصور الفقيه في تزيين الموت :

قد قلت إذ مدحوا الحياةَ وأسرفوا
في الموت ألفُ فضيلةٍ لا تعرفُ
منها أمانُ لقائه .. بلقائه
وفراقُ كُل معاشرٍ لا ينصفُ

ويروون أن يحيى البرمكي قال لعبد الملك بن صالح الهاشمي : أنت حقود .. فأجابه : إنْ كان الحقدُ عندك بقاء الخير والشرّ ، فإنهما عندي لباقيان

فقال يحيى : ما رأيت أحداً احتجَّ للحقد حتى حسّنه غيرك !

ومن نماذج « التغاير » الرائعة خطبة الامام علي بن أبي طالب — كرم الله

وجهه – في مدح الدنيا وتزيينها على غير عادة من يذمّها ، يقول فيها :

إنّ الدنيا دارُ صدْق لمن صَدقَها ، ودارُ عافية لمن فهم عنها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد أحباب الله ومُصلّى ملائكته ، ومهبط وحي الله ، ومَتْجرَ أوليائه ، اكتسبوا منها الرحمة ، وربحوا منها الجنة .

• • •

عن التكرار :

ومن ألوان البلاغة التي شغلت علماء البيان وجماعة الأدباء والشعراء في العصور الماضية ما يعرف باسم « التكرار » وهو دلالة اللفظ على المعنى مرددا لتأكيد غرض من أغراض الكلام أو المبالغة فيه .

وهو لون من البيان يتّسم بالثراء والترف والخصوبة . إذ لا يكفي أن يكون سياقه حلو الألفاظ ، بارع الأساليب ، جميل الأخيلة ، صادق الأداء ، بل لا بدّ له – وراء ذلك – من ثروة في الأنغام وغنى في الألحان وخصوبة في الفواصل والقوافي . وهذا التكرار يُستحبُّ كثيرا في مقام الغزل والتشبيب كتكرار اسم المحبوبة « لبنى » في هذا البيت لقيس بن ذريح :

ألا ليت لبنى لم تكـن لي خلّةً
ولم تلْقني « لبنى » ولم أدْرِ ما هيا

وتتضح ظاهرة التكرار بصورة أشمل في هذه الأبيات لابن المعتز :

لساني لسرّي كتـومٌ كتـوم
ودمعـي بحبي نمـومٌ نمـوم
ولي مالكٌ شفّـني حبّـه
بديعُ الجمـال وسيم وسيـم

لـه مقلتا شادنٍ أحورٍ
وأنفٌ سحورٌ رخيمٌ رخيم
فدمعي عليه سجومٌ سجوم
وجسمي عليه سقيمٌ سقيم

وقد يجيء هذا التكرار في مقام المدح أو الفخر أو الرثاء ، للتنويه بالممدوح أو المتحدث عنه ، والإشادة بذكره ، كقول الخنساء في أخيها « صخر » :

وإنَّ صخرا لمولانا وسيدنا
وإنَّ صخرا إذا نشتو لنحّار

ومن نماذجه الرفيعة ما جاء في القرآن الكريم ، يقول تعالى :

« والسابقون السابقون أولئك المقرّبون في جنات النعيم »

ويقول تعالى :

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوْا وآمنوا ثم اتقوْا وآمنوا ، والله يحب المحسنين »

ولو تأملنا مواضع التكرار في القرآن الكريم لوجدْناه على اختلاف فنونه مما اقتضته البلاغة الرفيعة ووقع موقعه من الصياغة المحكمة وأساليبها العالية ، فنزل منزلةَ التسليم والقبولِ من المزاج العربيّ والطبْعِ العربي والذوق العربي ..

فالتكرار في الذكر الحكيم ورَد للتخويف أو التهويل أو التفجّع وما إليها من الأغراض والمعاني ..

يقول تعالى : الحاقّةُ ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة .

ويقول تعالى : القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة .

ويقول تعالى : كلاّ سوف تعلمون ثم كلاّ سوف تعلمون .

ومثلها تكرار الآية الكريمة : « فبأيّ آلاء ربكما تُكذبان » في سورة الرحمن .

* * *

عن ترديد الأصوات وحُسْن الجرس والإيقاع :

ويلاحظ علماء لغتنا الجميلة أن العرب القدماء تفننوا في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى ، وحتى يسترعي الآذان بألفاظه ، كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه ، مما يدلّ على مهارتهم في نسج الكلمات وبراعتهم في ترتيبها وتنسيقها ، والهدف من هذا هو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ في الأسماع ، بحيث يصبح البيت الشعري أو الجملة من الكلام ، أشبه بفاصله موسيقيّة ، متعدّدة النغم ، مختلفة الألوان ، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن ، ويرى فيها دليل المهارة والقدرة الفنية ..

يقول تعالى : « ويوم تقوم الساعة، يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » : كلمة الساعة جاءت في هذه الآية مرتين ، ولها معنى مختلف في كل مرة ، في المرة الأولى معناها : يوم القيامة ، وفي الثانية تدل على جزء محدد من الزمن .

ويقول الشاعر :

ما مات من كرم الزمان ، فإنّه
يحيا لدى يحيى بن عبدالله

فالمقابلة هنا بين مات ويحيا زادت البيتَ جمالاً .

ثم كلمة « يحيا » التي جاءت مرتين ، مرة كفعل بمعنى يعيش والأخرى هي يحيى اسم الممدوح الذي يتوجه اليه الشاعر بالخطاب .

ويقول تعالى :

والتفّت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق .

ويقول تعالى :

وهم ينهوْن عنه وينأوْن عنه .

وتقول الخنساء :

إنّ البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

فهذا التقابل بين كلمات : الساق والمساق

ينهوْن وينأون

الجوى والجوانح

يدلُّ على مبلغ العناية الموجهة إلى تردد الأصوات في الكلام ، وما يتبع هذا من إيقاع موسيقي تطرب له الآذان وتستمتع به الأسماع .

ومن هذا الجمال البديعي ما يجيء على صورة تقسيمات موسيقية كأنْ يحتوي البيت الشعري على عدة قوافٍ بدلا من قافية واحدة ، مما يزيد في موسيقى الشعر ويُغنّيها ويجعلها أوقع وأشدّ تأثيرا .

يقول مسلم بن الوليد :

مُوفٍ على مُهَجٍ ، في يومِ ذي رهجٍ
كأنّه أجَلٌ يسعى إلى أملِ .

ونجد هذا التقطع الموسيقي في قوله : مهج ، رهج
وأجل ، أمل

ويقول أبو تمام :

تدبيرُ معتصمٍ ، بالله منتقمٍ
لله مرتقبٍ في الله مرتغبِ

ويقول شوقي :

تسرّب في الدموعِ فقلتُ ولّى
وصفّق في الضلوعِ فقلت ثابا

نلاحظ أن هذين النموذجين يتضمنان — بالاضافة إلى القافية الأساسية — قافية أخرى داخلية ، إذا أُتقنتْ كان لها وقعٌ موسيقيٌّ جميل .

* * *

عن التعبير وعلاقته بالطبْع :

ولقد تفرّد نقادنا الأوائل بالكشف عن كثير من القيم الفنية والنفسية التي ما تزال حتى اليوم تضيء الطريق أمام التذوق الأدبي ، والتعرف على أسرار البلاغة والخلق الفني في لغتنا الجميلة .

من ذلك التفات واحد منهم هو أبو الحسن الجرجاني في كتابه « الوساطة » إلى الارتباط بين التعبير وطبْع صاحبه ، وهو التفات يكشف عن ذكاء وحساسية فريدة ، وبتعرفٍ على أثر الحالات النفسية والذهنية والجسدية في قوة الشعر وضعفه .. يقول الجرجاني :

« وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم ، فيرقّ شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهلُ لفظ أحدهم ، ويتوعّرَ منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب الطبائع وتركيب الخلق ، فإنّ سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافيَ منهم كزّ الألفاظ مُعقّد الكلام وعْر الخطاب ، حتى إنّك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته ، وفي جَرْسه ولهجته . ومن شأن البــداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي ﷺ : « من بدا جفا » .

ولذلك تجد شعر عديّ وهو جاهليّ أسلس من شعر الفرزدق ورَجَــز رؤبة وهما إسلاميان ، لملازمة عديّ الحاضرة وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ، وترى رقّة الشعر أكثر ما تأتيك مِن قِبَلِ العاشق المتيّم والغَزِل المتهالك ، فإذا اتفقت لك الدماثة والصبابة وانصراف الطبع إلى الغزل فقد جمعت لك الرقة من أطرافها .. » .

• • •

عن اللفظ والمعنى :

ويصور ابن رشيق القيرواني في كتابه « العمدة » العلاقة بين اللفظ والمعنى فيقــول :

« اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقْصاً للشعر وهُجْنَةً عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من الشلل وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعُف المعنى واختلّ بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للأجسام من المرض ، فان اختلّ المعنى كله وفسد ، بقي اللفظ موَاتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع . كما أنّ الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه لا يُنتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جُملةً وتلاشى لم يصحّ له معنى ، لأنا لا نجد روحا في غير جسم . » .

وفي موضع آخر من كتابه ، وتحت عنوان « المطبوع والمصنوع » يقدم ابن رشيق تلخيصا أوفى للموضوع فيقول :

إن الشعر يرجع إلى أقسام :

المطبوع : وهو الذي ينبعث عَفْوَ الخاطر بلا كُلْفةٍ ولا صنْعة .

والمصنوع : ويجعل له أقساما :

- ما وقعت فيه « الصنعة » من غير قصْدٍ ولا تكلّف ، كأنواع التشبيه والبديع التي جاءت عَفْواً في بعض أشعار المتقدمين .

- وما وقع فيه « التصْنيع » : أي وُجدت فيه الصنعة عن قصْد ولكن بلا تكلف مفسد .

- وما وقع فيه التصنّع : أي وُجدت فيه الصنْعة بتكلفٍ شديد .

* * *

عن الموضوع وما يلائمه من موسيقى :

عندما نتأمل النماذج العالية والرفيعة من الشعر العربي فإنّنا نتوقع في موسيقى ألفاظ شعر الغزل والحب شيئاً غير الذي نتوقعه في وصف معركة أو في هجاء أو في موضوع سياسي حماسي .. فالشاعر المجيد يتخيّر من قاموس اللغة أصلح الألفاظ لمعانيه ، وأنسبها للتعبير عنها

ويحاول الشاعر أن تكون موسيقى ألفاظه حين يطرقُ المعنى العنيف غيْرَها في المعاني الهادئة الرقيقة ، وكما قسّم علماؤنا المعنى إلى عنيف ورقيق ، فقد قسّموا الحروف أيضا إلى قسمين : أحدهما ينسجم مع المعنى العنيف ، والآخر يناسب المعنى الرقيق الهادي .

ويقولون : إنّ أنسب الحروف للمعاني العنيفة هي :

الحاء والقاف والجيم والضاد والطاء والظاء والصاد .

وسنجدها كثيرة التكرار في هذه الأبيات من شعر البارودي من قصيدة له يفخر فيها ببأسه وشجاعته فيقول :

وبحرٍ مـن الهيجاء خُضْتُ عُبابَهُ
ولا عاصمٌ إلاّ الصفيـحُ المُشطّبُ

تُطلُّ به حُمْرُ المنايـا وسودُها
حواسرَ في ألوانـهـا تتقلّـب

توسّطْتُه والخيل بالخيـلِ تلتقي
وبيضُ الظُّبا في الهـامِ تبدو وتغرُبُ

فما زلت حتّى بيّن الكرُّ موقفـي
لدى ساعةٍ فيهـا العقولُ تُغيّـبُ

(يقصد بالصفيح المشطّب : سيفه المصقول).

بينما يرقُّ البارودي ويصبح شاعرا آخرَ في معانيه وحروف كلماته ، حين يقول في موضع آخر — والموضوع هنا رقيق هامس — فهو غزل ووَجْدٌ وصبابة .. يقول :

ألا يا حمـامَ الأيْكِ .. إلفُكَ حاضرٌ
وغصْنُكَ ميّادٌ ففيـم تنـوحُ

غدوْتَ سليماً في نعـيمٍ وغبطـة
ولكـنَّ قلبي بالغـرامِ جريـحُ

فإنْ كنْتَ لي عوْناً على الشوق فاستعر
لعينك دمْعاً فالبكـاء مريـحُ

وإلا فدعني من هديلك وانصرفْ
فليس سواء بـاذلٌ وشحيـحُ

فموسيقى الأبيات الأولى أعنف منها في الأبيات الأخرى ، كما أن نسبة شيوع الحروف التي تدلُّ على العنف أوفر بكثير في أبيات القصيدة الأولى منها في المقطوعة الثانية .

• • •

الفصل السادس

من كنوز لغتنا الجميلة



« اليتيمة »

لدوقلة المنبجي

من عيون تراثنا الشعري الزاخر بالكنوز ، قصيدة شعرية رائعة ، استشعر القدماء روعتها وأصالتها وتفردها فأطلقوا عليها اسم « اليتيمة » أي التي لا شبيه لها ولا نظير . وقد ظلت اليتيمة عصورا طويلة مجهولة النسب ، لا يعرفُ اسم شاعرها الحقيقي .

فمن قائلٍ هو الشاعر العباسي : عليّ بن جبلة، الذي قتله المأمون في أول القرن الثاني الهجري ،

ومن قائل هو الشاعر العباسي الذي اشتهر بالخمريات والمجون أبو نواس ، وإنّ القصيدة تحمل بصمات شاعريته وفنه . ومن قائل بلْ هو دوقلة المنبجي ، وهو شاعر لم تتحدث عنه كتب الأدب ولا يعرفُ له شعر سواها ، أما « منبج » هذه التي ينتسب اليها الشاعر فهي بلدة بالشام نشأ فيها من الشعراء : أبو تمام والبحتري وأبو فراس الحمداني وغيرهم من أعلام الشعر والبيان .

وأخيرا — ومنذ عدة سنوات — عُثر على النص الكامل لليتيمة في نسخة مخطوطة من المقامات توجد في الهند منسوبةً إلى دوقلة .. وهكذا لم تعد اليتيمة ، يتيمة النسب ..

و « اليتيمة » تنطق بشاعرية شاعر أصيل مقتدر ، تفنّن في وصف محبوبته « دعد » ، فلم يترك شيئاً منها إلاّ وقد وصفه أدقّ وصف وأجمله ، وكأنه

بذلك يُقدّمُ صورةً للجمال كما تعشّقه العربيُّ القديم ، وحتى ليخيل لقارىء القصيدة أنه يتأمل لوحةً فاتنة أبدعتها ريشة رسام مبدع .

رسم الشاعر في لوحته الفاتنة جسم محبوبته ، ووجهها ، وشعرها ، وجبينها ، وجيدها وزندها ومعصمها وغدائرها ونظراتها وكلّ نبضة من نبضاتها ، ولم يفتْهُ أن يصف ذهوله وإطراقه أمام هذا المشهد الرائع من مشاهد الحب والجمال وأن يتحدث عن أنفته وعزته وكبريائه حين يعز عليه الوصال ، وكأنه بذلك يقدم لنا مثل الفارس العربي النبيل يذوب في هواه صبابة ووجدا ، ولكنه يترفع عزة وإباء وشموخا ، ويُجلُّ نفسه عن ارتكاب الدنايا والصغائر .

يستهلُّ دوقلة قصيدته بمخاطبة الطلول — شأن الشعراء القدماء في استهلالهم التقليدي للقصيدة العربية — وسؤالها هل لديها جواب لما تهجسُ به نفسه ويجيش به وجدانه :

هل بالطلـــولِ لسائـــلٍ ردُّ
أم هـــل لها بتكلُّـــمٍ عهْدُ

ثم ينتقل بعد وقفته على الأطلال إلى محبوبته « دعد » فيقدم لها هذه الصورة الوصفية الفاتنة :

لهفي على دعْـــدٍ ، وما خُلقت
إلاّ لحـــرّ تلهفـــي دعْـــدُ
بيضاء ، قد لبس الأديمُ بهاء
الحسْنِ ، فهو بجلْدهـــا جلـــدُ
ويَزينُ فوْديْها إذا حسرت
ضافي الغدائـــرِ فاحـــمٌ جَعْدُ
فالوجـــهُ مثْلُ الصبحِ مُبيضٌ
والشَعْرُ مثلُ الليـــل مُسودُّ

ضِدّانِ ، لما استجمعا حَسُنا
والضدُّ يُظهر حُسْنَه الضدُّ
وكأنها وَسْنَى إذا نظرت
أو مُدْنفٌ لمّا يُفِقْ بَعْدُ
بفتورِ عينٍ ما بها رمدٌ
وبها تُداوى الأعينُ الرُّمْدُ
وكأنّما سُقِيتْ ترائبُها
والنّحْرُ ، ماءَ الوردِ ، والخدُّ
والصدْرُ منها قد يُزيّنه
نَهْدٌ كحُقِّ العاجِ إذْ يبدو
والمعصمانِ ، فما يُرى لهما
من نعمةٍ وبضاضةٍ زَنْدُ
ولها بنانٌ لو أردْتَ له
عَقْداً بكفّكَ أمكنَ العَقْدُ
وبخصرِها هَيَفٌ يُزيّنُه
فإذا تنوء يكاد ينقدُّ
ومشتْ على قدمين ، خُصِّرتا
والتفّتا ، فتكاملَ القدُّ
ما عابها طُولٌ ولا قِصرٌ
في خَلْقها ، فقوامها قَصْدُ

ثم ينتقل دوقلة إلى وصْف العلاقة بينه وبين محبوبته ، إنّها علاقة أخذ ورد ، وجزر ومدّ ، لكنه مع ذلك قانعٌ بأقل القليل .. قانع حتى بمجرد الوعد :

إنْ لم يكن وصلٌ لديك لنا
يشفي الصبابةَ ، فليكن وعدُ

قد كان أوْرَق وصلكُم زمَناً
فذوى الوصال ، وأورق الصد

للهِ أشواقي إذا نزَحتْ
دارٌ بنا ، وطواكمو البُعد

إنْ تُتهمي ، فتهامةٌ وطني
أو تُنجدي ، يكنْ الهوى نجد

وزعمْتِ أنك تضمُرين لنا
ودّاً ، فهلاّ ينفع الودُّ

وإذا المحبّ شكا الصدود ، ولم
يُعطفْ عليه فقتْلُه عَمْد

نختصُّها بالودّ ، وهي على
مالا نُحبُّ ، فهكذا الوجد !

وفي ختام « اليتيمة » تنتفض نفس الشاعر العربي بما تحمله من روح الفروسيه والتمرد أنفةً وعزة وكبرياء .. إنه هنا في مقام الحديث عن نفسه ، والتفاخر بأخلاقه وصفاته ، وقيمه العربية النبيلة :

ولقد علمْتِ بأنني رجلٌ
في الصالحاتِ أروح أو أغدو

سَلْمٌ على الأدنى ومَرحمةٌ
وعلى الحوادث ثابتٌ جَلْد

مُتجلببٌ ثوْبَ العفاف ، وقد
غفَل الرقيب ، وأمكن الوِرْد

ومُجانبٌ فعْلَ القبيح ، وقد
وصلَ الحبيب ، وساعدَ السّعْد

ليكنْ لديكِ لسائل فرَجٌ
أو لم يكنْ ، فليحسنِ الردُّ

« قمر في بغداد »

لابْن زُريْق البغدادي

وهذا شاعر قتله طموحه ، يعرفه دارسو الأدب ومحبوه ، لكنهم لا يعرفون له غير هذا الأثر الشعري الفريد يتناقله الرواة ، وتُعنى به دواوين الشعر العربي . فإذا ما تساءلنا عن الشاعر ، وعن سائر شعره ، فلن نظفر من بين ثنايا الصفحات بغير بضعة سطور ، تحكي لنا مأساة الشاعر العباسي «ابن زريْق البغدادي» الذي ارتحل عن موطنه الأصلي في بغداد قاصدا بلاد الأندلس ، علّه يجد فيها من لين العيش وسعة الرزق ما يُعوّضه عن فقره ، ويترك الشاعر في بغداد زوجةً يحبها وتحبه كُلَّ الحب ، ويخلص لها وتخلص له كل الاخلاص ، من أجلها يهاجر ويسافر ويغترب ، وفي الأندلس يجاهد الشاعر ويكافح من أجل تحقيق الحلم ، لكن التوفيق لا يصاحبه ، والحظّ لا يبتسم له ، ويمرض ، ويشتد به المرض ، ثم تكون نهايته في الغربة .

ويضيف الرواة بُعْداً جديدا للمأساة ، فيقولون إنّ هذه القصيدة التي لا يعرف له شعر سواها وجدت معه عند موته سنة أربعمائة وعشرين من الهجرة ، يخاطب فيها زوجته ، ويؤكد حُبّه لها حتى الرمق الأخير من حياته ، ويترك لنا – نحن قراءه من بعده – خُلاصةً أمينة ، لتجربته مع الغربة والرحيل ،

من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع لها ، وهو في ختام القصيدة نادم .. حيث لم يعد ينفع الندم أو يجدي .. متصدّع القلب من لوعة وأسىً حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين .

والمتأمل في قصيدة ابن زريق البغدادي لا بدّ له أن يكتشف على الفور رقة التعبير فيها ، وصدق العاطفة ، وعمق التجربة . فهي تنم عن أصالة شاعر مطبوع له لغته الشعرية المتفردة ، وخياله الشعري الوثّاب ، وصياغته البليغة المرهفة . والغريب ألا يكون لابن زريق غير هذه القصيدة ، مثله كمثل دوقلة المنبجي الذي لم تحفظ له كتب تراثنا الشعري غير قصيدته « اليتيمة » . وهكذا استحق الشاعران فضل البقاء والذكْر – في ذاكرة الشعر العربي كلّه بقصيدة واحدة لكل منهما ، وبالمقابل ، ما أكثر الشعراء الذين لا تعيهم ذاكرتنا بالرغم من أنهم سوّدوا مئات الصفحات وتركوا عشرات القصائد وزحموا الدواوين والمكتبات !

يقول ابن زريق البغدادي في مستهل قصيدته مخاطبا زوجته :

لا تعذليه ، فإنّ العذل يولعه
قد قلْتِ حقّاً ، ولكن ليس يَسْمعه
جاوزْتِ في لومه حدّاً أضرَّ به
من حيث قدَّرْتِ أنّ اللوم ينفعه
فاستعملي الرفْق في تأنيبه ، بدلاً
من عذْلهِ ، فهو مُضنى القلب مُوجعه
قد كان مُضطلعا بالخطبِ يحمله
فَضيّقت بخطوبِ الدهر أضلعه
يكفيه من لوعة التشتيتِ أنّ له
من النّوى كلّ يوم ما يُروّعه

ما آب من سَفرٍ إلاّ وأزعجــه
رأيٌ إلى سفرٍ بالعــزْم يُزمعــه

كأنما هو في حــلّ ومُرتحــلٍ
مُوكّلٌ بفضــاء اللهِ يَذرْعــهُ

إنّ الزمان أراه في الرحيل غــنىً
ولو إلى السِّنْد أضحى وهو يُزمعه

وما مجاهدة الإنسانِ توصلــه
رزقاً ، ولا دَعة الإنسان تقطعــه

قد وَزّع الله بين الخلــق رزقهمو
لم يخلقِ الله من خَلْــقٍ يُضيّعه

لكنهم كلفوا حرصا ، فلست ترى
مسترزقا وسوى الغايات تُقنعــه

والحرص في الرزق — والأرزاق قد قُسمت —
بَغْيٌ ألا إنّ بَغْيَ المرء يصرعــه

والدهر يُعطي الفتى — من حيث يمنعه —
إرْثاً ، ويمنعه مــن حيث يطمعــه

ثم يلتفت ابن زريق التفاتة محب عاشق إلى بغداد ، حيث زوجته التي تركها دون أن يستمع إلى نصيحتها ، إنها مملكته التي أضاعها ولم يحسن تدبيرها :

أستودع الله في بغداد لي قمــراً
بالكَرْخِ ، مــن فَلَكِ الأزرارِ مطلعُه

ودّعْته ، وبودّي لــو يُودّعني
صفْو الحياةِ وأنّــي لا أودّعــه

وكم تشبّثَ بي يوم الرحيل ضحىً
وأدمعــي مُستهلاّتٌ وأدمعــه

وفي رواية أخرى :

(كم قد تشفع بي يوم الفراق ضحى

. . . .

لا أكذب اللهَ ، ثوب الصبرِ منخرقٌ
عنيّ بفُرقتـه ، لكـنْ أرقعهُ

إنّي أوسّع عُذْري في جنايتـه
بالبين عنـه ، وجُرْمي لا يُوسّعهُ

رُزقت مُلْكاً فلم أُحسنْ سياسته
وكُلُّ مـن لا يسوس الملك يخلعـه

وفي رواية أخرى :

(كذاك مـن لا يسوس الملك يخلعه)

ومن غدا لابساً ثوب النعيم بـلا
شكرٍ عليه ، فإنّ الله ينزعـــه

وفي ختام القصيدة يتحدث ابن زريق عن واقع الحال في الغربة ، بين الأسى واللوعة ، والألم والندم ، وهنا ينفسح المجال للتأمل ، وينطلق اللسان بالحكمة التي تُفجّرها التجربة ، ويشرق القلب بالدموع :

اعتضْتُ من وجه خِلّي بعد فُرْقته
كأساً أُجرّعُ مِنها مـا أُجَرّعـه

كم قائلٍ ليَ ذُقْتَ البيْنَ ، قلتُ له :
الذنب واللهِ ذنبي ، لست أدفعـهُ

ألا أقمْتَ فكان الرشد أجمعه ؟
لو أنني يـوم بان الرشد أتبعـهُ

إنّي لأقطع أيامي ، وأنفدُها
بحسرةٍ منه في قلبي تُقطّعهُ
بمن إذا هجع النوّامُ بتُّ لـه
– بلوعة منه – ليْلي لستُ أهجعه
لا يطمئنُّ بجنْبي مضجعٌ ، وكذا
لا يطمئنُّ لـه مذ بنْتُ مضجعهُ
ما كنت أحسب أنّ الدهر يفجعني
به ، ولا أن بي الأيام تُفجعُه
حتّى جرى البين فيما بيننا بيد
عسراء ، تمنعني حظّي وتمنعه
قد كنتُ من ريْبِ دهري جازعاً فرِقاً
فلم أوقَّ الذي قد كنتُ أجزعهُ
بالله يا منزل العيش الذي درست
آثارُه ، وعفَتْ مُذ بنت أربعهُ
هل الزمان مُعيدٌ فيك لذّتنا
أم الليالي التي أمضتْهُ ترجعه
في ذمّة الله من أصبحتَ منزله
وجاد غيثٌ على مغناك يُمرعه
من عنده ليَ عهدٌ لا يُضيّعُه
كما له عهدُ صدقٍ لا أُضيّعُه
ومن يُصدّعُ قلبي ذكرُه ، وإذا
جرى على قلْبهِ ذكْري يُصدّعهُ
لأصبرنّ لدهرٍ لا يُمتّعني
بهِ ، ولا بيَ في حالٍ يُمتّعهُ

علماً بأنّ اصطباري مُعقبُ فرَجاً
فأضيقُ الأمرِ انْ فكرت أوسعه

عسى الليالي التي أضنتْ بفرقتنا
جسمي ، ستجمعني يَوْماً وتجمعهُ

وإنْ تَغُلْ أحداً منا منيّتُهُ
فما الذي بقضاء الله يصنعُه ؟

• • •

وحيد

لابن الرومي

وهذه مغنية خلّدها شاعر ..

أما المغنية فهي « وحيد » أشهر مغنيات العصر العباسي وأبعدُهنّ صيتا وأكثرهن جمالا وفتنة . اجتمع لها الصوت الرخيم والحسن البديع ، فتمتّتْ صورتُها على أحسن وجهٍ : لمن يرى ولمن يسمع ..

وأما الشاعر فهو ابن الرومي ، أشعر شعراء العصر العباسي كله ، وإن يكن أقلّ الشعراء حظا من عناية التاريخ الأدبي وإنصاف النقاد والدارسين قُدامى ومحدثين ، حتى كان الكتاب الذي ألفه عنه الأديب الراحل عباس محمود العقاد دراسة نفسيةً منهجية جامعة ، وضعته في مكانه من مسيرة الشعر العربي ، وأنصفته من عنت التاريخ وتجاهل المتأدبين .

وصلتْ لنا صورة ابن الرومي — الشاعر الفذ — في إطار من لوحاته الشعرية البارعة وقصائده المُمتلئة فنّاً ذكيا وحياة متدفقة ، وكان أقصى ما تقوله عنه كتب الأدب إنه شاعر هجاء لم يَسْلَمْ أحدٌ من لسانه ، برع في وصف أمور الحياة الدنيا وشئونها السوقية ، ألا تروْن ابن المعتز — الخليفة الشاعر — وهو يصف الهلال بأنه زورقٌ من فضة أرهقتْهُ حمولةٌ من عنبر ، بينما يقنع ابن الرومي بوصْف خبازٍ يتفنن في صُنْع رقاقه على النار !

ولهذا ، فقد بقي ديوان ابن الرومي حتّى اليوم شبه مفقود أو مفتقد ، اللهم إلا بضعة فصول منه حقّقها ونشرها المرحوم كامل كيلاني .

ويُحبُّ ابن الرومي مغنية عصره الذائعة الصيت ، الفاتنة الجمال ، ويهيمُ بها وَجْداً وعشقا ، وترتجف بهذا الحب ريشته الساحرة الملهمة ، فيفتن في رسم لوحته الشعرية الفريدة عن « وحيد » ، والقصيدة واحدة من عيون قصائده ، تنطُق بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيد ، والاستقصاء البارع اليقظ في تناول التفاصيل الدقيقة ، وأصالته الشعرية التي تتفجر بها كلماته وموسيقاه ، بينما يتحدث هو عن « وحيد » حديث العارف الخبير المحيط بكل أوصافها وحالاتها .

يقول ابن الرومي :

يـا خليـليَّ تيـمتـني وحيـد
ففـؤادي بهـا مُعنىً عميـد
غادةٌ زانها من الغصـن قـدٌ
ومن الظـبي مقـلتانِ وجيـد
وزهـاها من فرعها ومن الخدّيـن
ذاك السـواد والتوريـد
أوْقدَ الحُسْن نارَه في وحيـد
فوقَ خـدٍّ ما شانَه تخديـد
ما لمـا تصطليـه من وجنتيْهـا
غير ترشافِ ريقهـا تبريـد

ثم يجيد ابن الرومي بَسْطَ هذا المدخل لعرض محاسنها ومفاتنها في بساطة آسرة وسهولة ممتنعة .. فيقول :

وغريـرٍ بحسْنها قـال صِفْهـا
قلت : أمرانِ ، هيّنٌ وشديـد

يسهل القول إنها أحسن الأشياء
طُرّاً ويعسر التحديد
شمس دجن ، كلا المنيرين من شمس
وبدرٍ من نورها يستفيد
تتجلّى للناظرين إليها
فشقيّ بحسنها وسعيد
ظبيةٌ تسكن القلوب وترعاها
وقُمريّةٌ لها تغريد .

ويصل ابن الرومي إلى ذروة الابداع الشعري عندما يرسم بريشته المقتدرة هذه الصورة الوصفية لوحيد وهي تُغنّي ، هنا نجد لونا من التناول الشعري لا مثيل له في شعرنا العربي كلّه .. بينما الشاعر العاشق المتفنن ، يرسم كلّ خالجة من خوالجها وحركاتها الصوتية هدوءاً وانطلاقاً بَسْطاً وقَبْضاً ، ويحيط بكل حركة وسكنة من حركاتها وسكناتها :

تتغنّى ... كأنها لا تُغنّي
من سكونِ الأوصالِ ، وهي تُجيد
لا تراها هناك ، تجحظ عينٌ
لك منها ، ولا يدرّ وريد
من هُدوّ ، وليس فيه انقطاعٌ
وسجوٍّ ، وما به تبليد
مدٌّ في شأوِ صوتها نَفَسٌ كافٍ
كأنفاسِ عاشقيها مديد
وأرقّ الدلال والغُنْج منه
وبراهُ الشّجا فكاد يبيد

فتراه يمـوت طَوْراً ويحيـا
مستلَــذٌ بسيطــه والنشيــد

فيه وَشْيٌ ، وفيه حَلْيٌ من النّغم
مَصوغٌ ، يختــال فيه القصيــد

طاب فُوها وما تَرجَّــع فيـــه
كلُّ شيء ٍ لها بــذاك شهيــد

فلها ـــ الدّهْرَ ـــ لاثمٌ مستزيد
ولها ـــ الدَّهْرَ ـــ سامعٌ مستعيــد

وفي ختام هذه اللوحة الشعرية الرائعة ، يكشف ابن الرومي النقاب عن مدى حبه لوحيد ، وعُمْقِ تعلقه بها ، فهو لا يستمع لنصيحٍ يلومه في هواها بعد أن تملّكه هذا الهوى وسدَّ عليه كلَّ الاتجاهات : عن يمينه وعن شماله وقُدّامه وخلفه .. فأين منه المفر ؟

ثم إنّ هذا الهوى الذي يربطه بها دائم التجدّد .. دائم المنح والعطاء :

وحسانٍ عرضْنَ لي ، قلت مَهْــلا
عن وحيدٍ ، فحقُّهــا التوحيــد

حُسْنُها في العيونِ حُسْنٌ وحيدٌ
فلها في القلوبِ حُبٌّ وحيــد

ونصيحٍ يلومــني في هواهــا
ضلَّ عنه التوفيــق والتسديــد

هو في القلب ، وهو أبعد من نجمِ
الثريا ، فهو القريب البعيــد

ليَ حيثُ انصرفْتُ عنهــا رفيقٌ
من هواها ، وحيثُ حلّتْ قعيــدُ

عن يميني ، وعن شمالي ، وقُدّامي
وخلفي ، فأين عنه أحيدُ
أهي شيء لا تسأم العين منه
أم لها كلَّ ساعةٍ تجديدُ ؟

• • •

« عيون المها » لعليّ بن الجهْم

وهذا شاعر يجيء ذكرهُ كثيراً في كتب الأدب والتراث العربي ، عندما يروون حكايته الطريفة وقد وقف لأول مرة بين يدي الخليفة العباسيّ المتوكل ، مادحاً ، وهو الشاعر البدوي القُرشي الفصيح المطبوع ، فلم تُسعفه قريحتُه بأجملَ من هذا الكلام يقوله للخليفة :

أنتَ كالكلب في حفاظك للودِّ وكالتيْس في قراع الخطوبِ
أنت كالدَّلو ، لا عدمناك دلْواً من كبار الدِّلا ، كبيرَ الذَّنوبِ

ويدهش الحاضرون في مجلس الخليفة من هذا الشاعر الذي يمدح الخليفة بأنه كالكلب في حفظ الودّ ، وكالتيس في مواجهة المصاعب والأخطار ، وكالدلو الذي يحمل المياه ويجلبها — كثيرة الذنوب — أي غزيرة من قاع البئر .

لكن الخليفة « المتوكل » لا يغضب ، ولا تصيبه الدهشة ، وإنما يدرك بفطرته بلاغة الشاعر ونُبلَ مقصده وخشونة لفظه وتعبيره ، وأنه لملازمته البادية فقد أتى بهذه التشبيهات والصور والتراكيب .. ثم هو يأمر للشاعر بدارٍ جميلة على شاطىء دجلة ، لها بستان بديع ، يتخلله نسيم لطيفٌ يُغذّي الأرواح ، قريب منه ، بحيث يخرج الشاعر إلى محلات بغداد يطالع حركة الناس ومظاهر مدنيتهم وحضارتهم وترفهم ، ويقيم الشاعر « عليُّ بن الجهم » مدة من الزمان على هذه الحال ، والأدباء والعلماء يتعهدون مجالسته ومحاضرته ثم يستدعيه

الخليفة وينشده الشاعر قصيدة جديدة .. فتكون المفاجاة .. قصيدة من أرق الشعر وأعذبه .. يقول مطلعها :

عيون المها بين الرّصافــة والجسْــرِ
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ويصيح المتوكل : انظروا كيف تغيّرتْ به الحال ، والله لقد خشيتُ عا ه أن يذوب رقة ولطافة .

ذلك هو الشاعر البدوي النشأة ، البغدادي الاقامة : عليّ بن الجهم ، الذي عاش في منتصف القرن الثالث الهجري ، وذاعت شهرته وملأت الآفاق بفضل قصيدته الرائعة « عيون المها » التي يقول فيها :

عيون المها بين الرصافة والجســر
جلبْن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدْنَ ليَ الشوق القديم ، ولم أكن
سلوْتُ، ولكن زدْنَ جَمْراً على جمرِ
سلمْنَ ، وأسلمْنَ القلوب ، كأنما
تشكّ بأطراف المُثقفة السّمْــرِ
خليليّ ، ما أحلى الهوى ، وأمــرّهُ
وأعرفني بالحُلْوِ منه ، وبالمُــرّ
بما بينَنا من حُرمةٍ هل علمتمــا
أرقّ من الشكوى وأقسىَ من الهجرِ
وأفضحَ من عَيْنِ المُحبّ لســرّهْ
ولا سيّما إنْ أطلَقت عَبْرةٌ تجري

يصف علي بن الجهم حواراً دار بين محبوبته وصاحبةٍ لها تستحثها على وصاله ولقائه ، وكيف أنه استمع إلى هذا الحوار وشارك فيه مدافعاً عن نفسه تهمة التشهير في شعره بمحبوبته ..

فيقـــول :

فقالت لها الأخرى : فما لصديقنـــا
معنّى، وهل في قتله لك من عذر
صليه ، لعلّ الوصل يُحييه ، واعلمي
بأنّ أسير الحب في أعظم الأســـر
وأيقنتا أنيّ سمعتُ ، فقالتـــــا :
من الطارقُ المُصغي إلينا ولا ندري !
فقلتُ : فتى إن شئتما كتم الهـــوى
وإلا فخـــلاّعُ الأعنّةِ والعُــذْرِ
على أنّه يشكو ظلومـــاً وبخلها
عليه بتسليمِ البشاشـــة والبشـــرِ
فقالت : هُجينا ، قلتُ : قد كان بعض ما
ذكرْتِ ، لعلّ الشرّ يدفعُ بالشـــرّ

ثم دار الزمان دورته ، وانقضت عصور وعصور ، وحدث أن التقى شاب وامرأة جميلة على جسر الرصافة ، وأراد الشاب أن يُعلن — في لغة خفية — عن إعجابه وصبوته ، فقال لها :

رحم الله علي بن الجهم !

فردت عليه المرأة قائلة : ورحم الله أبا العلاء المعري !

أما الراسخون في العلم بتراثنا الشعري فيقولون : لقد أراد الشاب بهذا القول أن يُذكرها بقصيدة علي بن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسـر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأرادت المرأة الجميلة بردّها أن تذكُره بقول أبي العلاء المعري :

أيا دارها بالخَيفِ إنّ مزارهـــا
قريبٌ ولكن دون ذلك أهوال !

* * *

المؤنسة لمجنون ليلى

أما شاعرنا هذا فهو أشهر المحبين في تاريخ أدبنا العربي .. قديمه وحديثه : قيس بن الملوح ، أو هو بتعبير آخر أشهر الشعراء العذريين قاطبة : مجنون ليلى ..

ومن بين ديوان مجنون ليلى تستوقفنا قصيدته « المؤنسة » ، ليس لأنها كما تقول مصادر شعره أشهر قصائده فحسب ، ولا لأنها أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها ، ولا لأنها — كما يقولون — كانت أقرب قصائده إلى قلبه ، لا يخلو بنفسه إلاّ وأنشدها — من هنا كانت تسميتها بالمؤنسة لكثرة ما آنست المجنون بترديده لها وإنشاده أبياتها مجموعة أو متفرقة — ليس لكل هذه الأسباب نتخيّر قصيدة المؤنسة من ديوان المجنون ، ولكن لأنها نموذج رفيع للشعر العذري — الذي ازدهر في المجتمع الاسلامي الأول في بادية الحجاز وأطرافها زمن خلافة الأمويين الذين نقلوا عاصمة الدولة ومركز اهتمامها إلى دمشق مُخلّفين للبادية الفراغ وراحة البال — ولقد عبّر هذا الشعر العذري لدى أعلامه الكبار : جميل بثينة وكثير عزة ونصيب وقيس بن ذريح الذي يعرف باسم « مجنون لبنى » وابن الدُّمينة وأبي صخر الهزلي ، عبّر عن عاطفتهم المشبوبة ، التي لا تتطلع إلى متع حسيّة ، فقد كانوا يسمُون بها سُمواً تجلّى في اعتزازهم بها والتضحية في سبيل الإبقاء عليها بما يستطيعون بذله من جهد وآلام ومعاناة الحرمان من الظفر بحبيباتهم ، بدافع الزهد في المحرّمات وتقوى

الله .. لقد دفعهم الحرمان إلى التسامي ، ولا يتاحُ مثل هذا التسامي إلاّ للصفوة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحبُّ العذري حبٌّ عفٌّ لأنه حبٌّ حرَّم المتعة الجسدية ، وهو عاطفة صادقة لأنه يدوم ويستمر ويبقى على الرغم من الحرمان .. ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه ، لأنه يحرص فيه على القيم الانسانية والمثل العليا ، ولا يقف عند مجرّد الحسرة والندم على الحرمان ، الحرمان من متع الحب ووصال الحبيب .

في ضوء هذه السطور نستطيع أن نتأمل قصيدة « المؤنسة » رائعة مجنون ليلى ، باعتبارها نموذجا صادق التعبير والتصوير لحقيقة هذا الحب العذري ، ولعمق مكابدة العاشق العذري وتساميه بعاطفته المشبوبة وشعوره الصادق ووجْدِه المُبرِّح .

يقول قيس بن الملوّح :

تذكرتُ ليلى ، والسنين الخواليـا
وأيامَ لا نَخْشَى على اللّهْوِ ناهيا

ويومٍ كظلِّ الرُمْحِ قصَّرْتَ ظلّه
بليْلى ، فلهّاني ، وما كنتَ ناسيـا

فيا ليل كمْ من حاجةٍ لي مُهمةٍ
إذا جئتُكمْ بالليلِ لم أدْرِ ماهيـا

فما أشرفُ الأيْفاعَ إلاّ صبابـةً
ولا أنشدُ الأشعار إلاّ تداويـا

وقد يجمع اللهُ الشتيتيْن بعدمـا
يظنّانِ كُـلَّ الظن ألاّ تلاقيـا

ثم يمضي قيس في قصيدته المؤنسة ، لنطالع من خلال أبياتها نسيجا شعريا محكما ، غاية في الرقة والعذوبة ، تعمرهُ روح بدوية أصيلة ، تكسبُه رصانة

وصدقا ، وبعدا عن التكلف وخلوّا من الصنعة ، إنه نسيج شعري يزخر بصدق العاطفة وروعة التصوير وحرارة الوجد والهيام .. ولا يملك قارئه إلا أن يتعاطف معه ، ويتأثر بما يحمله من لوعة وحنين ، وشجن وأسى .

يقول قيس :

حمى اللهَ أقواماً يقولون إننا
وَجدْنا طَوال الدهر للحبِّ شافيا
خليليَّ ، لا واللهِ ، لا أملكُ الذي
قضى اللهَ في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيْري وابتلاني بحبها
فهلاً بشيءٍ غيْرِ ليلى ابتلانيا
فما طلع النجمُ الذي يُهتدى به
ولا الصبحُ ، إلاّ هيّجا ذكرها ليا
ولا سُمّيتْ عندي لها من سَميّة
من الناس إلاّ بلّ دمعي ردائيا
فإنْ تمنعوا ليلى وتحموا بلادها
عليَّ فلن تحموا عليَّ القوافيا

ثم يقول مجنون بني عامر :

أحبُّ من الأسماء ما وافق اسْمَها
أو أشبهُ أو كان منه مدانيا
ولم أرَ مثْلينا خليلَيْ صبابةٍ
أشدَّ على رَغم الأعادي تصافيا
خليلان لا نرجو اللقاء ، ولا ترى
خليليْنِ إلاّ يرجوانِ التلاقيا

وإنّي لأستحييك أن تعرض المنى
بوصْلكِ أو أنْ تعرضي في المنى ليا

فأنتِ التي إنْ شئت أشقيْتِ عيشتي
وإنْ شئتِ بعد الله أنعمْتِ باليـــا

وإنّي لأستغْشي وما بيَ نَعْســـةٌ
لعلَّ خيالاً منك يلقـــى خياليـــا

ذكتْ نارُ شوقي في فؤادي، فأصبحت
لها وهْج مستضرم في فؤاديـــــا

مُعذّبتي ، لولاكِ ما كنتُ هائما
أبيتُ سخين العيْنِ حرّان باكيـــــا

مَعذّبتي ، قد طال وَجْدي وشقوتي
هواكِ ، فيا للناس ، قلَّ عزائيـــا

وقائلــةٍ ، وا رحْمتَا لشبابـــــه
فقلتُ : أجلْ ، وا رحمتا لشبابيـــا

وددتُ على طيبِ الحياة لو أنــه
يُزادُ لليْلى عُمْرُها مـــن حياتيا

ألا يا حماماتِ العــراق أعنّني
على شجنِي وابكيْن مثل بكائيـــا

يقولون ليـــلى بالعراق مريضــة
فيا ليتني كنتَ الطبيـــب المداويـــا

تمــرُّ الليالي والشهور ، ولا أرى
غرامي لها يـــزداد إلاَّ تماديـــــا

و في ختام هذه القصيدة الطويلة دعاء صادر من الأعماق ، وبكاء صادق للنفس ، ففي مثل هذا الحب العذري المتوهج : إما ليلى وإما الفناء :

فيا ربِّ إذْ صيّرْتَ ليلى هي المنى

فزنّي بعينيها ، كما زنْتَها ليا

على مثْلِ ليلى يقتلُ المرءُ نَفْسَهُ

وإنْ كنتُ من ليلى على اليأس طاويا

خليليَّ إنْ ضنُّوا بليلى ، فقرِّبا

ليَ النعْشَ والأكفان ، واستغفرا ليا

• • •

نارُ ليلي للشّهرزُورى

ويقودنا الحديث عن ليلى في الشعر العذري إلى « ليلى » التي هام بها الشعراء المتصوفة في قصائد من عيون الشعر الصوفي ، وإذا كانت ليلى في شعر العذريين صورة إنسانية حية نابضة الملامح والقسمات ، فإنها لدى المتصوفة رمز للحقيقة الكبرى ، وللذات الالهية ، ولمعنى الوجود وغايته ، إنها صورة للعشق الأسمى ، حين يبلغ الشاعر المتصوف أرقى درجات السموّ الروحي وأسناها ، عندئذ يتّحد العاشق بالمعشوق فيما يُسمّيه المتصوفة مرتبة الحلول ..

وفرقٌ كبير بين الشعر الصوفي بهذا المعنى والشعر الديني بصورة عامة . فتراثنا العربي يمتلىء بصفحات كثيرة تُمثّلُ هذا الشعر الديني سواء كان موضوعه الإلهيات أو النبويات أو مقامات الأولياء أو المناسبات الدينية ، على نحو ما نجد في شعر البوصيري أو الحصري أو البرعي وغيرهم . فهذا الشعر الديني يظل في جوهره شيئا آخر تماما ، يختلف في طرائقه وأساليب تناوله وصوره ومعانيه عن الشعر الصوفي عند أعلامه : كالحلاّج وابن عربي وابن الفارض والشهرزوري... وغيرهم .

والقصيدة التي نقدمها الآن ، واحدة من عيون هذا الشعر الصوفي، إن لم

تكن في رأي الكثيرين من المهتمين بتراثنا الأدبي قصيدة القصائد الصوفية .. أما شاعرها فهو ضئيل الحظ من الشهرة وذيوع الصيت بين الأدباء والمتأدبين ، ذلك هو عبدالله بن قاسم الشَّهْرَزُوري .. الشاعر العالم ، والأديب الثقة ، والمحدث البارع الحكيم ..

وأجمل ما في قصيدته « نار ليلى » أنها تنسج على منوال غير مألوف في شعرنا العربي عامة والشعر الصوفي خاصة ، لذلك فقد بقيت على الرغم من تعاقب القرون عليها فريدة الطابع والسمات ، بل لقد تركت تأثيرها عميقا في الكثير من نماذج الشعر الصوفي بعدها ..

يستهل الشهرزوري قصيدته بوصف ابتداء الرحلة — رحلة البحث عن الحقيقة المطلقة .. عن معشوقته ، عن ليلاه . لقد خرج إليْها ليلاً لعله يهتدي إلى نارها ومعه صحبة يؤنسون وَحْدته ويُبدّدون وحشته :

لمعت نارُهم وقد عسعس الليلُ ... وملّ الحادي وحار الدليلُ
فتأملتُها ، وفكري من البيْن عليلٌ ولحْظُ عيني كليلُ
وفؤادي ذاك الفؤادُ المُعنّى ... وغرامي ذاكَ الغرام الدخيلُ
ثم قابلْتُها وقلت لصحبي ... هذه النار نارُ ليلى فميلوا
فرمَوا نحوها لحاظاً صحيحاتٍ فعادت خواسئاً وهي حُولُ
ثم مالوا إلى الملامِ وقالوا ... خُلّبٌ ما رأيْتَ أم تخييلُ
فتجنّبتهمُ وملْتُ إليها ... والهوى مَرْكبي وشوقي الزميلُ
ومعي صاحبٌ أتى يقتفي الآثار والحبُّ شأنه التطفيلُ

ثم يبسط الشهرزوري من خلال تصويره الشعري البارع . وخياله الصوفي المحلق ، يبسط تصويره الفذّ لمسيرة الحب والوجد . بلوغا إلى حيث الحقيقة الكاملة واليقين المشرق ، بعد أن قادته شواهد الحال وظنّ أن النار التي أضاءت له سوف تُنيلُ :

فدنوْنا من الطلولِ فحالــت زفراتٌ من دونها وعويــلُ
قلتُ مَنْ بالديــار ؟ قالت جريحٌ وأسيرٌ مُكبّلٌ وقتيــلُ
ما الذي جئْتَ تبتغي ؟ قلت : ضيفٌ جاء يبغي القـرى ، فأين النزولُ
فأشارت بالرحبِ دُونَك فاعقاها، فما عندنا لضيفٍ رحيــلُ
من أتانا ألقى عصا السير عنه، قلتُ : مَنْ لي بذا ، وكيف السبيلُ
فحططنا إلى مَنــازل قــوم صرّعتْهم قبل المذاق الشمولُ
ومن القومِ منْ يشيرُ إلى وجدٍ تبقّى عليه منــه القليــلُ
قلت : أهلَ الهوى سلام عليكم لي فؤاد عنكم بكــم مشغولُ
لم يزل حافزٌ من الشوق يحدو بي إليكم ، والحادثاتُ تحــولُ
جئتُ كي أصطلي ، فهل لي إلى ناركم هذهِ الغــداةَ سبيلُ
فأجابت شواهدُ الحال عنهــم كلُّ حدٍّ مــن دونها مفْلولُ
نارُنا هذه تضيء لمن يسري بليلٍ ، لكنهــا لا تنيــلُ
هذه حالنا ، وما وصل العلم إلينا ، وكلُّ حــال تحــول !

* * *

وكيف تنام العين ؟ للأبيوردى

من بين شعراء تراثنا العربي – في العصرين الأموي والعباسي – شاعرٌ لم تلتفت إليه كتب الأدب ، ولم يعن به النقاد أو الدارسون ، بالرغم من أنه في طليعة شعراء أدبنا العربي أصالة وموهبة ، واقتدارا على المعاني المبتكرة والتوليدات الدقيقة ، فضلا عن جزالته المتميزة ، ونَفَسِه الشعري الممتد ..

هذا الشاعر هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي المعاويّ الأمويّ العبشميّ المُتوفيّ في ٢٠ ربيع الأول سنة خمسمائة وسبع وخمسين من الهجرة ،

يتصل نسبه بأبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس جدّ الخلفاء الأمويين ، وقد كان الأبيوردي معتزا بهذا النسب ، لا ينساه ولا يكتمه ، ولا يحجم عن مواجهة خلفاء بني العباس به ، ولا أن يفاخرهم به في حَضْرَتهم ..

والمتأمل في شعر الأبيوردي يجد أنه رمزٌ فذّ لاعتزاز الشاعر بنفسه وبقيمته وبإنسانيته ، ويتعرف على نفس كبيرة تمتلىء كبرا وطموحا .. وكأنها نفس المتنبي الشاعر العربي الكبير .. يقول الأبيوردي :

تنكّر لي دهري ، ولم يدرِ أنني
أعــزٌّ وأحداث الزمــان تهــونُ
فبات يُريني الخطب كيف اعتداؤه
وبتُّ أريه الصبْرَ كيــف يكــونُ

كان شعاره الدائم أن يقول الشعر تعبيرا عن نفسه وترجمة عن أدبه وتأكيدا لقدراته ومواهبه ، لا يريد به جاها ولا عطاء من أحد :

ولم أنظم الشعر عُجْبــاً بــه
ولم أمتدح أحــدا مــن أربْ
ولا هزّني طمــعٌ للقريض
ولكنــه ترجمــان الأدبْ

والقصيدة التي نلتقي من حولها الآن للأبيوردي قالها عند استيلاء الفرنج على بيت المقدس سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، يستحث بها الهمم ويستثير النخوة والحمية ، ويحذر من مصير الأمة العربية كلها إذا استسلمت للتخاذل والتواكل والسلبية في وجه الطامعين المعتدين .

ولكأني بالتاريخ يعيد نفسه .. وما أحرانا اليوم أن نستمع من جديد إلى صوت الأبيوردي قادما من وراء القرون ، ينتفض إباء وشمما ، ويستصرخ فينا كلّ معنى من معاني الحياة النبيلة ، من أجل الوقفة الكريمة والعزْم الشجاع :

مزجْنَا دماء بالدمــوع السّواجم
فلم يَبْقَ منهـا عُرضــةٌ للمزاحمِ
وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يفيضه.
إذا الحربُ شبّت نارهــا بالصوارمِ
فإيهاً بني الاسلام ، إنّ وراءكم
وقائـع يلحقن الذُّرى بالمنـاسمِ
أتهويمةٌ في ظلّ أمنٍ وغبطــة ؟
وعيشٍ كنوّار الخميلــة ناعــمِ ؟
وكيف تنـام العين ملْء جفونها
على هَبوات أيقظتْ كُــلّ نائــمِ
وإخوانُكم بالشام ، يضحى مقيلهم
ظهور المذاكي أو بطــون القشاعمِ
يسومهمُ الرومُ الهوانَ ، وأنتمــو
تجرُّون ذيْلَ الخفْضِ فعْلَ المسالمِ
وكمْ مــن دماء قد أبيحت ، ومن دُمىً
توارى حيــاء حسْنُهــا بالمعاصمِ
بحيثُ السيوف البيضُ محمّرة الظبى
وسمْرَ العوالي داميــات اللهــاذمِ
وبين اختلاس الطعنِ والضرْب وقْفةٌ
تظــلُّ لها الولدان شيــبَ القــوادمِ
وتلك حروبٌ من يغبْ عن غمارها
ليسلمَ ، يقْرَعْ بعــدها سنّ نــادمِ
سللنْ بأيدي المسلمين - قواضبــا
ستغمدُ منهم في الطّلى والجماجمِ

يكـــاد بهنّ المستَجنُ بطيبـــــة
ينادي بأعـــلى الصوت : يا آل هاشم

ثم تحين من الشاعر التفاتة إلى واقع الحال من حوله ، إلى أمته التي لم تدرك مدى ما يتهددها من خطر جسيم ، وإلى رجالاتها الذين تخلّت عنهم النخوة أو تخلّوا هم عن النخوة ، فلم يعودوا يأبهون بالدفاع عن الحُرمات والثأر للعروض، ويستغرب الشاعر موقفهم من الزهد في القتال والكفاح دفاعا عن الوطن المسلوب ويتساءل بينه وبين نفسه : إن لم يكونوا يجاهدون دفاعا عن الحرمات فهلاً حاربوا طمعاً في غنيمة ؟

أرى أمتي لا يشرعون إلى العــدا
رماحهم ، والدين واهـــي الدعـــائم
ويجتنبون النـــار خوْفاً من العـــدا
ولا يحسبون العـــار ضَرْبَـــة لازمِ
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى
وتُغضي عــلى ذلٍّ كماة الأعاجم !
فليتهمو إذْ لم يـــزودوا حميـــةً
عـــن الدين ضنّوا غيْرةً بالمحـــارم !
وإنْ زهدوا في الأجر إذْ جمَّش الوغى
فهلاً أتوْهُ رغبـــةً في المغـــانمِ !
لئن أذعنت تلك الخياشيم للـــثرى
فلا عطسوا إلاّ بأجـــدع راغـــمِ
دعوْناكمو والحربُ ترنو مُلحـــةً
إليْنا بألحاظِ النسور القشاعـــمِ
تراقبُ فينا غارةً يعربيــــــة
تطيلُ عليها الـــروم عضّ الأباهـــمِ

فإنْ أنتمو لم تغضبوا عنــد هــذِهِ
رمتْنا إلى أعدائنـــا بالجـــرائم !

* * *

إني قاتلة مقتولة ! **لجليلة بنت مرة**

لعلها أول مأساة يصوّرها الشعر العربي على هذه الصورة الشعرية الآسرة ! والمأساة هنا ، مأساة مزدوجة أو هي بتعبير آخر مأساة من جانبين ، إنها مأساة زوجة عربية شاعرة .. قتل أخوها زوجها ! .

أما الزوجة فهي جليلة بنت مرة ، عاشت في منتصف القرن السادس الميلادي ، تقول عنها كتب التراث العربي : إنها شيبانية من ذوات الشأن في الجاهلية ، وإنها أخت جساس الذي قتل كليبا زوجها . أما جساس هذا ، فهو من بني بكر بن وائل شجاع من أمراء العرب ، له شعر قليل ، وقد تسبّب بقتله كليبا في نشوب حرب طاحنة بين قبيلتَيْ بكر وتغلب ، دامت أربعين عاما ، ومات جساس في آخرها . ويقولون إن جليلة بعد أن قتل أخوها زوجها انصرفت إلى منازل قومها ، فعاتبتها أخت كليب لهذا ، فردّت عليها بقصيدة هي من عيون الشعر العربي ، وأكثره نفاذا إلى النفس وتأثيرا فيها ، لما ضمّنته أبياتها القليلة المحكمة من عاطفة حارة صادقة أسيانة ، وتصوير قوي فاجع ، ولغة سهلة طيعة .. تقول جليلة :

يا ابنة الأقوامِ ، إنْ شئتِ فـــلا
تعجلي باللـــوم ، حتّى تسألــــي
فـــإذا أنتِ تبيّنْتِ الــــذي
يوجبُ اللّوْمَ فلومـــيْ واعـــذلي
إنْ تكن أختُ امرىءٍ ليمت على
شَفَقٍ منهـــا عليْـــهِ فافعـــلي

جلّ عندي فعلُ جساسٍ ، فيا
حسرتي عمّا انجلت أو تنجلي
فعلُ جساسٍ ، على وجدي به ،
قاصمٌ ظهري ومُدنٍ أجلي
يا قتيلاً قوّض الدهر به
سقف بيتيّ جميعاً من علِ
هدّم البيت الذي استحدثته
وانثنى في هدْمِ بيتي الأول
يا نسائي دُونكنّ اليوم ، قد
خصّني الدهر برزْء مُعضلِ
خصّني قتلُ كليبٍ بلظىً
من ورائي ، ولظىً من أسفلِ
ليْس من يبكي ليوميْه كمن
إنّما يبكي ليومٍ مُقبلِ
يشتفى المدركُ بالثأرِ ، وفي
دَرك ثأري ثُكْلُ للمثكلِ
إنّي قاتلةٌ مقتولةٌ
ولعلّ الله أن يرتاح لي !

• • •

وأمطرت لؤلؤاً ليزيد بن معاوية

وهذه قصيدة فاتنة ، تنسبها كتب التّراث العربي ليزيد بن معاوية ، من بين ما يُنسب له من مقطوعات شعرية أخرى ، ولئن صدقت هذه النسبة ، فإنّها تنمّ عن شاعر أصيل مطبوع ، له أسلوبه الشعري ، وطرائقه في التعبير ، وصوره

الطريقة المبتكرة ، التي هام بها البلاغيون والبديعيون ، استشهادا وتمثيلا .

ولا نظنّ أن كتابا من كتب البلاغة العربية ، يخلو من هذا البيت الشعري المأثور ، يستشهد به على تتابع الاستعارات والصور الشعرية :

وأمطرت لؤلؤاً من نَرْجسٍ ، وسقت
ورْداً ، وعضّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ

وكثيرا ما تملكتنا الدهشة والغرابة ، لهذا الشاعر الذي افتن في وصف هذه الباكية المنتحبة ، حتى صوّر دموعها لؤلؤا ، وعيونها نرجسا ، وخدّيْها وردا وشفتيْها عُناباً وأسنانها بَرَداً .. كل هذا في بيت واحد ، فتأملوا !

إذن ، فالشائع أن هذا الشاعر المفتن أو المتفنن هو يزيد بن معاوية ، ولنُشبع فضولنا بالتعرف على سائر أبيات هذه القصيدة الجميلة :

نالت على يدها ما لم تنلْه يدي
نقْشاً على معصم أوْهَتْ به جلَدي

كأنه طُرْق نملٍ في أناملها
أو روضة رصَّعتْها السحب بالبَردِ

وقوْس حاجبها من كلّ ناحية
ونَبْل مقلتها ترمي به كبدي

مدّت مواشطها في كفّها شركا
تصيدُ قلبي بهِ من داخل الجسدِ

أنيسةٌ لو رأتْها الشمس ما طلعت
من بعد رؤيتها يوما على أحدِ

سألتُها الوصلَ قالت : لا تُغرّ بنا
من رام منا وصالاً مات بالكمدِ

فكم قتيلٍ لنا بالحب مات جــوى
من الغرامِ ولم يُبدىء ولم يُعــدِ

فقلت : أستغفرُ الرحمن من زللٍ
إنّ المحب قليــل الصبرِ والجلــدِ

قــد خلّفتْني طريحاً وهي قائلــة :
تأملوا ، كيف فعلُ الظبْيِ بالأسدِ

قالت لطيْف خيالٍ زارني ومضى :
بالله صفْهُ ، ولا تنقص ولا تــزدِ

فقال ، خلّفتُهُ لو ماتَ من ظمأ
وقلتِ : قفْ عن ورود الماء ، لم يردِ

قالت : صدقْتَ ، الوفَا في الحبّ شيمتُه
يا بَرْد ذاك الذي قالت على كبدي

واسترجعت سألتْ عني ، فقيل لها :
ما فيه من رمقٍ ، دقّتْ يداً بيدِ

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس ، وسقت
ورداً ، وعضت عــلى العُنّاب بالبردِ

وأخيرا يقول يزيد بن معاوية :

إنْ يحسدوني على موْتي ، فوا أسفي
حتّى على الموتِ لا أخلو من الحسد !

* * *

نفس عالية — للقاضي الجرجاني

ويحدثنا التاريخ الأدبي أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كان ذا نفس عالية غالية ، فقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الابية المتمنعة ، التي حرمت عليه طيبات الحياة إيثاراً للعزة والأنفة والكرامة ، وصوناً للعرض من الدنس وإبعاداً للمروءة عن مواطن الابتذال .

ولقد عزّتْ نفس هذا القاضي وأسرفت في التصون والاعتزاز ، وما زالت به تصده عن مواطن الشبهات ومظان الريب والظنون ، حتى زيّنت له العزلة والانفراد ، وشعره في هذا المعنى مثال من الأمثلة العليا التي تعتزُّ بمحاكاتها كبار النفوس ، فضلا عن صوره البيانية الرفيعة ، ولغته القوية الآسرة في وضوح ونقاء وشفافية .

يقول القاضي الجرجاني :

يقولون لي : فيك انقباضٌ ،وإنّما
رأوْا رجلا عن موقف الذلّ أحجما

أرى الناس من داناهمو هان عندهم
ومن أكرمتهُ عزّة النفس أكرما

وما زلتُ مُنحازاً بعِرضيَ جانبا
من الذمّ أعتدُّ الصيانة مغنما

إذا قيل : هذا مشربٌ،قلت: قد أرى
ولكنّ نفْسَ الحُرّ تحتمل الظما

وما كلُّ برقٍ لاح لي يستفزني
ولا كلُّ أهل الأرض أرضاه مُنعما

ولم أقْضِ حقّ العلم إنْ كان كلما
بدا مطمع صيّرتُه ليَ سُلّما

ولم أبتذلْ في خدمــة العلــم مهجتي
لأخــدم مــن لاقيت لكن لأُخْدَما
أأشقى بــه غرْساً وأجنيــه ذلّةً
إذنْ فاتّباع الجهل قد كــان أحزمــا
ولــو أنّ أهل العلم صانوه صانهم
ولــو عظّموه في النفوس لعظمــا
ولكنْ أهــانوه فهانوا ، ودنّسوا
مُحيّاهُ بالأطمــاع حتى تجهّمــا

هذا المعنى نفسُه ، معنى الاعتزاز بالنفس ، والترفع عن الدنايا والصغائر ، وإعطاء العلم ما يستحقُّه من رفعة وتكريم ، يؤكده القاضي الجرجاني في قصيدة ثانية له .: فيقول :

على مُهجتي تجنى الحوادث والدهرُ
فأما اصطباري فهو مُمتنعٌ وَعْــرُ
كأنّي ألاقي كلّ يــوم ينوبني
بذنبٍ ، وما ذنبي سوى أنني حــرُ
فإن لم يكن عند الزمان سوى الذي
أضيقُ بــه ذَرْعاً ، فعندي لــه الصبرُ
وقــالوا توصّلْ بالخضوع إلى الغنى
وما علموا أنّ الخضوع هــو الفقرُ
وبيني وبين المــال بابان حرّمــا
عليّ الغنى : نفسي الأبيــةُ والــدهرُ
إذا قيل : هذا اليسرُ ، عاينت دونه
مواقفَ خيرٌ من وقوفي بهــا العُسْرُ

إذا قدّموا بالخير ، قدّمتَ دونهم
بنفسٍ فقيرٍ ، كلُّ أخلاقه وَفْرُ

وتمضي على هذا الشعر وقائله قرون وقرون ، لكن ما تزال في السمع والقلب أصداء هذه النفس الأبية المترفعة ، وهذا التصوير الرائع للتعفف وإيثار النبل والكرامة ، ومن جديد يتردد في أسماعنا قول القاضي الجرجاني :

إذا قيل : هذا مشربٌ ، قلتُ : قد أرى!
ولكنّ نفس الحرّ تحتمل الظما

وقوله :

إذا قيل : هذا اليُسْرُ عاينتُ دونه
مواقفَ خيرٌ من وقوفي بها العُسْرُ

وقوله :

وبيني وبين المال بابان حرّما
عليّ الغنى : نفسي الأبية والدهرُ

• • •

التمثال **لعلي محمود طه**

في المقدمة النثرية التي كتبها الشاعر علي محمود طه لقصيدة « التمثال » يقول :

الانسان صانع الأمل ، ينحت تمثاله من قلبه ومن روحه ، ولا يزال عاكفا عليه يبدع في تصويره متخيّلا فيه الحياة ومرحها وجمالها ، ولكن الزمن يمضي ولا يزال تمثاله طيفا جامدا وحجرا أصمّ ، حتى تخمد وقدة الشباب في دم الصانع الطامح وتشعره السنون بالعجز والضعف فيفزع إلى معبد أحلامه هاتفا بتمثاله ، ولكن التمثال لا يتحرك ، ولكن الحلم الجميل لا يتحقق ، وهكذا

تجتاح الليالي ذلك المعبد وتعصف بالتمثال فيهوي حطاما ، وهنا يصرخ اليأس الانساني ويمضي القدر في عمله » .

وقصيدة « التمثال » التي يضمها ديوان « ليالي الملاح التائه » لعلي محمود طه هي قصة الأمل الانساني في فصولها الأربعة ، يصور الشاعر في الفصل الأول منها رحلته إلى التمثال ، تمثال الأمل الذي نحته من قلبه وروحه ، إنه يريد أن ينفرد ليناجيه في الليل حين تهجع الكائنات وتستيقظ الذكريات . وفي الفصل الثاني نرى الشاعر وهو ينثر مجموعة هداياه تحت قدميْ التمثال عسى أن يتحرك ، ولكن الحلم الجميل لا يتحقق .. وفي الفصل الثالث نرى النفس الانسانية وهي في لحظة من لحظات الهزيمة والمرارة التي لا تترك في أعماق الشاعر إلا آثار اليأس والقنوط والزفرات والحسرات . وفي الفصل الرابع والأخير نشهد ختام المعركة بين الوهم والحقيقة ، بين الخيال والواقع .. إنها معركة ضارية تنشب داخل النفس يكتوي بنارها القلب وتمتلىء بغبارها العين وتنجلي حين تنجلي عن صرعى ظنون وعن شهداء آمال .

وتبقى قصيدة التمثال بعد هذا كله نموذجا فريدا ينبض بطريقة الشاعر علي محمود طه في التعبير الشعري ، طريقة قوامها الأناقة المترفة ، والأداء النفسي الهامس ، والصورة الشعرية المجنّحة :

أقبــل الليلُ ، واتخذتُ طريقــي
لكَ ، والنجــم مؤنسي ورفيقـــي
وتـــوارى النهـــار خلف الستار
شفقيٌّ مــن الغمـــام رقيـــقِ
مــدّ طيرُ المســاء فيــه جنــاحا
كشراعٍ في لُجّــةٍ مــن عقيق
هــو مثلي ، حيرانُ يضرب في الليل
ويجتـــازُ كــلّ وادٍ سحيـــقِ

عــاد من رحلة الحيــاة كما عدتُ
وكــــلٌّ لوكْرهِ في طريــــق
أيهــــذا التمثالُ هــأنــذا جئتُ
لألقــــاكَ في السكون العميــــقِ
حــــاملاً مــــن غرائب البرّ والبحر
ومــن كـــلِّ مُحْدثٍ وعــريــق
ذاك صيْدي الذي أعود بـــه ليلا
وأمضي إليــه عنـــــد الشروق
جئتُ ألقي بـــه عـــلى قدميك الآن
في لهفـــة الغريب المشـــوق
عــاقداً منـــه حول رأسك تــاجا
ووشـــاحاً لقــدّك الممشوق

* * *

صورةٌ أنتَ مــن بدائــع شتى
ومثالٌ من كـــل فـــن رشيــق
بيــدى هــذه جبَلتُكَ من قلبي
ومــن رونقِ الشبــــاب الأنيــق.
كلمــــا شمْتُ بارقــا من جمال
طــرتُ في إثره أشق طــــريقي
شهــد النجم كم أخذتُ من الروعة
عنــه ، ومَــن صفــاء البريــــق
شهــد الطير كم سكبت أغــانيه
عـــلى مسمعيْكَ سَكْبَ الرحيــق

شهد الكرم كم عصرتُ جناه
ومـلأتُ الكؤوس مـن إبريقي
شهد البرُّ ما تركت من الغار
على معطف الربيع الوريق
شهد البحرُ لم أدعْ فيه من درٍّ
جديرٍ بمفرقيْك خليق
ولقد حيّر الطبيعة إسرافي
لها كلَّ ليلة وطروقي
واقتحامي الضحى عليها كراعٍ
آسيوي ، أو صائدٍ إفريقي
أو إله مجنّح يتراءى
في أساطير شاعرٍ اغريقي
قلت لا تعجبي ، فما أنا إلاَّ
شبحٌ لجَّ في الخفاء الوثيق
أنا يا أمّ صانع الأمل الضاحك
في صورة الغد المرموق
صُغْتُهُ صوْغَ خالقٍ يعشق الفن
ويسمو لكلّ معنى دقيق
وتنظّرْتُهُ حياةً ، فأعياني
دبيبُ الحياة فى مخلوقي
كلّ يوم أقول : في الغد ، لكن
لستُ ألقاه في غدٍ بالمفيق
ضاع عمري وما بلغتُ طريقي
وشكا القلب من عذاب وضيق

* * * *

معبدي ! معبدي ! دجا الليل ، إلا
رعشة الضوء في السراج الخفوق
زأرتْ حولك العواصفَ لمّا
قهقه الرعد لالتماع البروق
لطمَتْ في الدجى نوافذَك الصمَّ
ودقّتْ بكلّ سيْلٍ دفوق
يا لتمثالي الجميلِ احتواه
ساربُ الماء كالشهيدِ الغريق
لم أعدْ ذلك القويَّ ، فأحميه
من الويْلِ والبلاء المحيق
ليلتي ! ليلتي ! ، جنيْتِ من الآثام
حتى حملْتِ ما لم تطيقي
فاطربي واشربي صبابة كأس
خمرُها سال من صميم عروقي

* * *

مرَّ نورُ الضحى على آدميٍ
مطرق في اختلاجة المصعوق
في يديْه حطامة الأمل الذاهب
في ميْعةِ الصبا المؤموق
واجماً أطبق الأسى شفتيه
غير صوتٍ عبر الحياة طليق
صاح بالشمس لا يرْعك عذابي
فاسكبي النار في دمي وأريقي

نارُكِ المشتهــاة أندى عــلى القلب
وأحنى مــن الفؤاد الشفيــق
فخــذي الجسْمَ حفنــةً من دماء
وخــذي الروح شُعلةً مــن حريق
جُنَّ قلبي ، فما يرى دمه القاني
عــلى خنجرِ القضــاء الرقيــق !

* * *

عبيد الرياح لمحمود حسن اسماعيل

« في غروب يوم قائظ ، ماتت رياحه وسكن فيه كل شيء إلاّ غناء شقي تهاتر أنينه من هؤلاء المعذبين الأبطال ساروا مصفدين بحبال السفن ، يصارعون تيار النيل في عراك جبار مع الطبيعة ، علّهم يشقون صدرها في طريقهم إلى الجنوب » .

بهذه المقدمة النثرية ، يقدم الشاعر محمود حسن اسماعيل للوحته الشعرية لأخاذة . عبيد الرياح التي تنبض باقتداره الشعري ، وقدرته التصويرية الفائقة ، والتفاته الذكي إلى أدقّ وأخفى الخلجات الانسانية في النفس البشرية ، وهو يصوّر هؤلاء الملاحين البائسين الذين يصارعون الرياح ، ويعزون أنفسهم بالغناء ، ويجرُّون وراءهم أيامهم وذكرى شقاواتهم والكروب .

ثم يختم القصيدة بنبضة شعرية آسرة ، يؤكد فيها لعبيد الرياح أنهم ليسوا وحدهم العبيد ، فكلنا عبيدٌ .. عبيدٌ للخطوب :

رأيتهمُــو في غــروبٍ كئيبْ
يعزُّ عــلى شمسهم أن تغيــب
حدتْهــم بــأشلاء ضوءْ ذبيــحٍ
يُعصْفر أشبــــاحهم بــاللهيب

جبابرةٌ عوّدوا للهواء
وبثّوا رقاهم لريحِ المغيب
يلوحون صفّاً وئيد الحراك
كأنهمو صُلبوا في الكثيب
يسيرون سيْر الهوان المريب
ويمشون مَشْيَ الزمان الكئيب
فتحسبهم أوغلوا في الخيال
وعينُك تأخذهم من قريب
على صدْرهم من غضون الكفاح
أفاعي حبالٍ تلفُّ الجنوب
تجاذبُهم خطوهم للوراء
فهم من عنادٍ بقايا حروب
سواعدهم مُوثقات الزنود
ولكنها عُدَّةٌ للهبوب
تشقُّ الفضاء بأصفادها
فتنشقُّ أجوازه أو تذوب
وأجسادهم حانياتٌ لنا
ركوع المُحمّل ثقل الذنوب
كأنهمو في سفوح الزمان
شياطين تحدو المساء الرهيب
حواميمهم خلف نعش الرياح
هواهو .. هواهو .. غناءٌ رتيب
سقاهم « سليمان » من سرِّه
فكادوا يمسّون سَمْع الغيوب

أقاموا جنازاً يئنُّ الفضاء
بأصدائه وينوح الغروب
يكاد يعزّي ، ويمشي النخيل
وراءهمو ، وتلوذ السهوب
شدوْا واستجاروا وخاب النداء
فغاصتْ خطاهم وشقوا الجيوب
ومرّوا حفاةً عراةً ، لهم
شهيق الثكالى وزفر الغريب
على الأرض خُرْسٌ وإن همهموا
فهذي صلاة تذيب القلوب
يجرُّون أيامهم .. خلفهم
وذكرى شقاواتهم ، والكروب
عبيدَ الرياح ، كلانا رقيقٌ
فغنّوا وسلوا عبيد الخطوب

* * *

في نور عينيك **لحسين عفيف**

يضم ديوان « الغسق » للشاعر حسين عفيف ، مقطوعات من الشعر المنثور ، تعصر لبَّ الحياة في كأس، هدفُها إيقاظ القلب باللفظ المشع والايحاء الهامس.. ليبصر الحقائق بنفسه من خلال إشراقاته ويكتشف طريقه الذي يضلّه مغمضا ..

فالقلب يبصر ما لا تراه العين ، ويلهم كالطير اتجاهَ الريح، وهو أبعد إدراكا من العقل وأصوب .

يقول الشاعر حسين عفيف :

سمراء يا قدحَ النبيذ ، شعشع سحركِ دُكْنتَه ، كلّما
رشفت خمرته ، سكرت حتى النمل .
سمراء يا بندقة ، لفحتها الشمس المشرقة ، حبذا
أنت مُلّحتْ ، مُزّة عند الشراب .
سمراء يا قهوة ، مُزجت بلبن ، حلوة أنت
بمرارة ، كالشجي يغشى حبك ..

* * *

يا للنداء العذب المنبعث من فمك ، وقد تبلور
في نبقــة ..
أيخشى القُبل فانضمّ تعففا ، أم طرب لها
فانطبق عليها
فمٌ ما خُلقَ إلاّ للغزل ، ولضرام الحب تشعله
حمرتــه ..

* * *

في حراسة الملائكة نامي ، لا ذقْتِ السهاد الذي يقرح جفني . وليهنأ بالنوم طرفك الساجي ، في حين أصحو أساهر النجم وحدي ..

متى يا ليل تجرُّ أذيالك ، وينبثق ضوء الفجر فيبدد ظلمتك، إنّ ساهرك يستوحش في دجاك ، ويرقب أسْوَان طلوع فجرك .

* * *

ثم يقول الشاعر حسين عفيف :
أيها الجمال أهواكَ حيث كنت ، ولا أملُ البوْحَ لك
ما خلق منك وما لم يزل في الغيب أكنُّ الحب له .
ضاع في عشقك عمري ، وما لثمت كلَّ ثغر بعد .
شوق يجيش بأضلعي .. ماله من حدّ .

في نور عينيك تسبح روحي ، وفي ظل أهدابك
تعشّش أحلامي ..
في بُعدك أفقد نفسي ، يا سالبة فؤادي بسهام
لحظك ..
جُودي بالوصل لتردّيها علي ، وبذراعك الحنون
طوّقي ألمي .
واشفي بحديث الروح جراح القلب ، يا بلسم حبي .

* * *

خدُك وردي وقلبي جمرة
كلاهما شبّت به النار ، وما أحلى حريقها
وأنْ نفنَى في اللهب المقدس في ساعة نشوة
يا شمعتي ، إنّي الفراشة ، برفيفي وهج ، فهيا
نحترق !

* * *

في انتظار رسالة — لبدر شاكر السيّاب

وهذه قصيدة لأحد رواد حركة الشعر الجديد ، الشاعر العراقي الراحل بدر شاكر السياب ، والقصيدة من كتاباته الشعرية الأخيرة ، التي صاغها وهو على فراش المرض متنقلا بين بيروت ولندن والبصرة والكويت حتى كانت خاتمة المطاف في ديسمبر ١٩٦٤ .. لكن القصيدة التي تنبض بحسّ التذكر والانتظار لرسالة تأتيه من زوجته بالعراق ، تُقدّم لنا أهم سمات الشعر الجديد وأبرزها ، متمثلة في الصياغة الجديدة والتناول الجديد للتجربة الشعرية ، وفي الموسيقية الجديدة ، الداخلية والمتنوعة ، وفي التعبير بالصورة ، نامية ومتآزرة .. كما تقدم لنا أيضا أبرز السمات الشعرية للسياب ، من قاموس شعري رصين ،

عربيٌّ الأصول والملامح ، وبنيان شعري راسخ الدعائم والركائز ، ونزوعٍ دائم إلى أجواء البصرة ، يستلهمها مفردات صوره وتراكيبه الشعرية ..

يقول السياب :

وذكرتُها ، فبكيت من ألمي
كالماءِ يصعد من قرار الأرض ، نزَّ إلى العيون دمي
وتحرَّقتْ قطراته المتلاحقات لتستَحيل إلى دموع
يخنقني فأصكُّ أسناني ، لتنقذف الضلوع
مَوجاً تحطّم فوقهن وذاب في العدم
دخان من القلب يصعد
ضباب من الروح يصعد
دخان .. ضباب
وأنت انخطاف وراء البحار ، وأنت انتحاب
ونوْحٌ من القلب كالمدّ يصعد
ودمع تجمد
وغصت به الماء في الحنجرة

* * *

ذكرتك يا كلَّ روحي ويا دفء قلبي إذ الليل يبرد
ويا روضةً تحت ضوء النجوم بأقداحها مزهرة
وذكرت كلَّتنا يهف بها ويسبح في مداها
قمرٌ تحيّر كالفراشة ، والنجوم على النجوم
دندنَّ كالأجراس فيها ، كالزنابق إذ تعوم
على المياه .... وفضّض القمر المياها
وكأنَّ جسمك زورق الحب المحمل بالطيوب
والدفء ، والمجذاف همس في الميان يرنُّ آها
فآها ، والنعاس يسيل منك على الجنوب

فينام فيه النخلُ تلتمع السطوح بنومهن الى الصباح
أوَّاه ما أحلاك ! نام النور فيك ونمْتِ فيه ،
والليل ماء ، والنباح
مثل الحصي ينداح فيه ، وأنتِ أول وارديه

. . . . . .

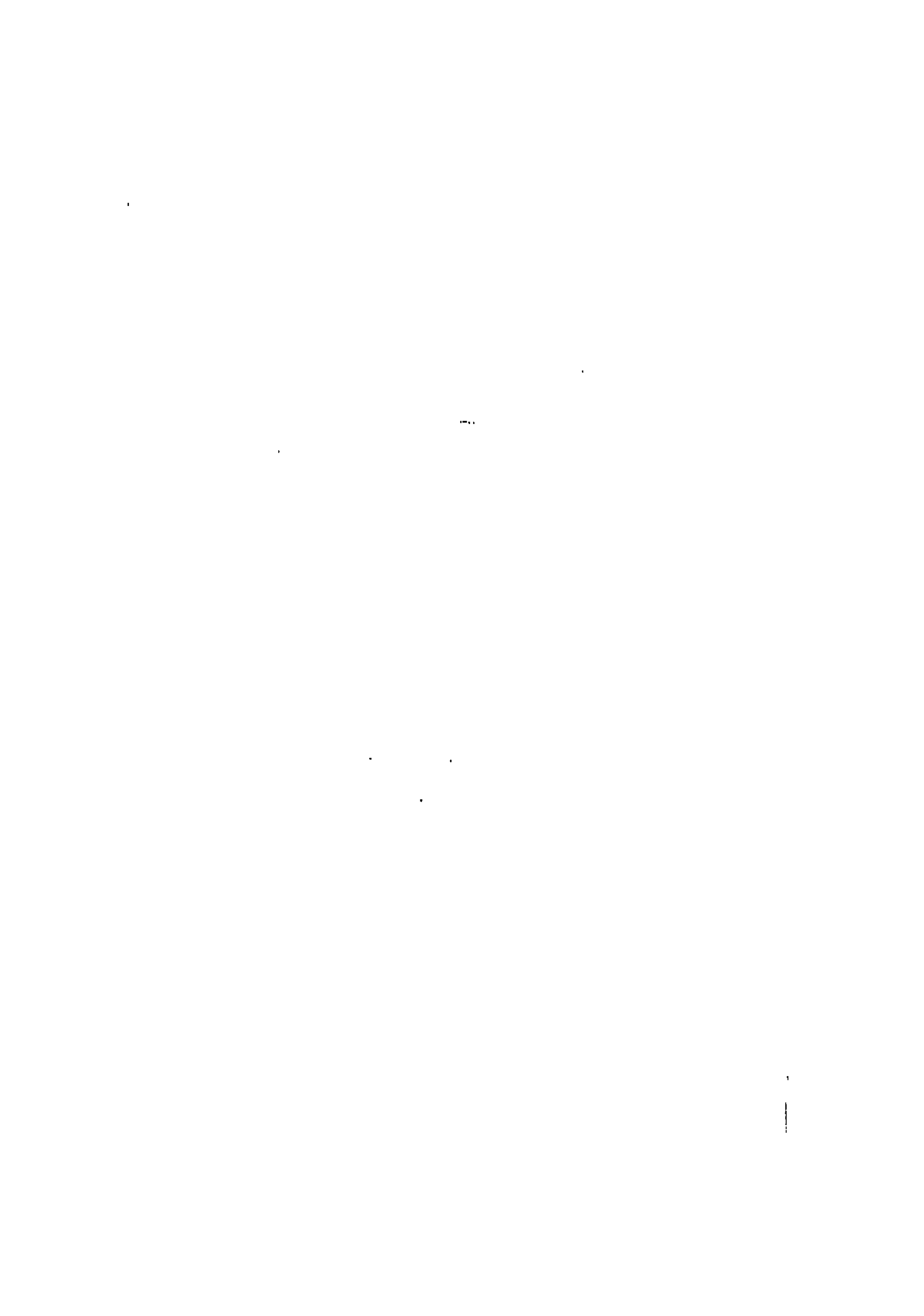
هو الصيف يلثم شط العراق
بغيْماته ، ذاب فيها للقمر
وتوشكُ تسبح بيض النجوم ، لولا برودة ماء النهر
وهفَّ شراع لأضلاعه في الهواء اصطفاق ،
وغنّى مغن وراء النخيل
يغمغم : « يا ليل ، طال السهر
وطال الفراق ! »
كأن جميع قلوب العراق
تنادي ، تريد انهمار المطر

. . . . . .

وصعدت نحوك والنعاس رياحٌ فاترات تحمل الورقا
لتمسَّ شعرك ، والنهود به ، تموت
حيناً وتلهث في النوافذ من بيوت
ألقاك في غرفاتها ، وأشدُّ جسمك فار واحترقا
إنّي أريدك ، أشتهيك ، أمس ثغرك في رسالة
طال انتظاري ، وهي لا تأتي ، وتحترق الزوارق والبخوت
في ضفّة العشّار تنفض ، وهي لاهثة ، ظلاله
علَّ الرياحَ حملْنَ منك لها رسالة
لمَ تبخلين عليَّ بالورقات ، بالحبْرِ القليل ، وسَحْبة القلم الصموت
إنّي أذوب هوى ، أموت
وأحنُّ منك الى رسالة

الفصل السابع

لغتنا الجميلة في فم المعاصرين



« دارنا الدمشقية »

الكثيرون لا يعرفون أن للشاعر العربي نزارقباني نثرا أدبيا هو أيضا لون من الشعر ، بل هو – في رأي البعض – لا يقل عن شعره رهافة وعذوبـــة وأصالة ، فضلا عن جيشانه بالنغم الداخلي ، وتماوجه بالصور والظلال . تحت عنوان « دارنا الدمشقية » يقول نزار قباني :

لا بد من العودة إلى الحديث عن دار « مئذنة الشحم » لأنها المفتاح إلى شعري ، والمدخل الصحيح إليه ، وبغير الحديث عن هذه الدار تبقى الصورة غير مكتملة ، ومنتزعة من إطارها ..

هل تعرفون معنى أن يسكن ألانسان في قارورة عطر ؟ بيتنا كان تلك القارورة !

إنني لا أحاول رشوتكم بتشبيه بليغ ، ولكن ثقوا أنني بهذا التشبيه لا أظلم قارورة العطر ، وإنما أظلم دارنا .

والذين سكنوا دمشق ، وتغلغلوا في حاراتها وزواريبها الضيقة ، يعرفون كيف تفتح لهم الجنة ذراعيها من حيث لا ينتظرون .

بوابة صغيرة من الخشب تنفتح ، ويبدأ الاسراء على الأخضر والأحمر

والليلكي ، وتبدأ سيمفونية الضوء والظل والرخام ..

شجرة النارنج تحتضن ثمرها ، والدالية حامل ، والياسمينة ولدت ألف قمر أبيض ، وعلّقتهم على جدران النوافذ ، وأسراب السنونو لا تصطاف إلا عندنا.

أسود الرخام حول البركة الوسطى تملأ فمها بالماء وتنفخه ، وتستمر اللعبة المائية ليلا ونهارا ، لا النوافير تتعب ، ولا ماء دمشق ينتهي .

الورد البلدي سجاد أحمر ممدود تحت أقدامك . والليلكة تمشط شعرها البنفسجي ، والشمشير ، والخبيزة ، والشاب الظريف ، والمنثور ، والريحان ، والأضاليا ، وألوف النباتات الدمشقية التي أتذكر ألوانها ولا أتذكر أسماءها ، لا تزال تتسلّق على أصابعي كلما أردت أن أكتب .

القطط الشامية النظيفة ، الممتلئة صحة ونضارة ، تصعد إلى مملكة الشمس لتمارس غزلها ورومانتيكيتها بحرية مطلقة ، وحين تعود بعد هجر الحبيب ومعها قطيع من صغارها ، ستجد من يستقبلها ويطعمها ويكفكف دموعها .

الأدراج الرخامية تصعد وتصعد على كيفها ، والحمائم تهاجر وترجع على كيفها ، ولا أحد يسألها ماذا تفعل ؟ والسمك الآخر يسبح على كيفه ، ولا أحد يسأله إلى أين !

وعشرون صفيحة فل في صحن الدار هي كل ثروة أمي ، كل زرّ فل عندها يساوي صبيا من أولادها ، لذلك كلما غافلناها ، وسرقنا ولدا من أولادها بكت وشكتنا إلى الله .

ثم يقول نزار :

ضمن نطاق هذا الحزام الأخضر ولدت ، وجدت ، ونطقت كلماتي الأولى .

كان اصطدامي بالجمال قدرا يوميا ، كنت إذا تعثرت أتعثر بجناح حمامة ، واذا سقطت أسقط على حضن وردة .

* * *

« عن الشعر والموسيقى »

وعن الشعر وصلته بالموسيقى ، يقول الدكتور ابراهيم مدكور الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة :

الشعر لغة القلوب ، ومرآة النفوس ، يعبر عن الخلجات الغامضة ، ويكشف عن الاحساسات الدفينة ، يخاطب الوجدان والعاطفة ، ويستلهم الوحي والخيال وينفذ إلى أعمق شيء في الإنسان والطبيعة ، يقوم على اللفظ الرشيق والتصوير الدقيق والتشبيه البديع والنغم الحلو .

يقول صاحب كتاب العمدة :

إنّ بنية الشعر من أربعة : لفظ ومعنى ، ووزن وقافية ، وما سمي الشاعر شاعرا إلا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عنده توليد معنى ولا اختراع صورة ، ولا ابتداع لفظ ، كان اسم الشاعر عليه مجازا .

ويقول أيضا :

الشعر ما اشتمل على الاستعارات الرائعة ، والتشبيه الرائع ، وما سوى ذلك فوزن . ثم يقول الدكتور مدكور :

وللشعر في الحقيقة جانبان ، لا وجود له بدونهما ، وهما الخيال والموسيقى . فبالتخيل يخرج الشاعر على المألوف ويأتي بالغريب والطريف . وقديما تحدثوا عن شيطان الشعر ، وهو ليس شيئا آخر سوى تلك القوة الخالقة المبدعة التي عدها أفلاطون قوة إلهية مقدسة ، وسما بها بعض المحدثين إلى مستوى المعجزة . والأخيلة الشعرية هي التي تهز الشعور والوجدان ، وتسبح بنا في عالم آخر غير

عالم الواقع . وليس هذا الخلق والابداع في متناول الجميع . بل لا بد له من ملكة واستعداد خاص ، ومَنْ لا موهبة عنده ، أولى به ألا يغامر في هـذا المضمار .

الشعر صعبٌ وطويل سُلّمُه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
هوَتْ به إلى الحضيض قدمه

والشعر وثيق الصلة بالموسيقى ، تطرب النفوس لوزنه ، وتهتز الأجسام لنغمه ، وأغلب الظن أنه نشأ أول ما نشأ في ثوب الغناء ، يترنم به الفرد في وحدته ، وتُردّد الجماعة في جدها ولهوها ، وقد قيل : الشعر موسيقى المجاهدين في سبيل المجد ، وحداء المجتهدين في ركب الحياة .

* * *

« الشاعر والمقلد »

وعن لغتنا الجميلة — بين الجمود والتطور — يقول جبران خليل جبران :

إن خير الوسائل ، بل الوسيلة الوحيدة لاحياء اللغة ، هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه ، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو الواسطة بين عالم النفس وعالم البحث ، وما يفرزه عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين .

الشاعر : أبو اللغة وأمها ، تسير حيثما يسير ، وتربض أينما يربض ، وإذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة ، حتى يمرّ بها شاعر آخر ويأخذ بيدها .

وإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها ، فالمقلد ناسج أكفانها وحفار قبرها .

ثم يقول جبران :

أعني بالشاعر كلّ مخترع ، كبيرا كان أو صغيرا ، وكلّ مكتشف قويا

كان أو ضعيفا ، وكلّ مختلق عظيما كان أو حقيرا ، وكلّ محب للحياة المجردة ، إماما كان أو صعلوكا ، وكلّ من يقف متهيبا أمام الأيام والليالي ، فيلسوفا كان أو ناطورا للكروم .

أما المقلد ، فهو الذي لا يكتشف شيئا ولا يخلق أمرا ، بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ، ويضع أثوابه المعنوية من رُقعٍ يجزُّها من أثواب من تقدمــه .

وأعني بالشاعر : الملاح الذي يرفع للسفينة ذات الشراعين شراعا ثالثا ، والبنّاء الذي يبني بيتا ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة ، والصباغ الذي يخرج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله ، فيستخرج لونا جديدا ، وهكذا يضيف كل من الملاح والبناء والصباغ شراعا جديدا إلى سفينة اللغة ، ونافذة إلى بيت اللغة ، ولونا إلى ثوب اللغة .

أما المقلّد : فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيبه ، فإن ذكر وجه حبيبته وعنقها قال : بدر وغزال ، وإن خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال : ليلٌ وغصن بانٍ وسهام ، وإن شكا قال : جفن ساهر ، وفجر بعيد ، وعذول قريب ، وان شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال : حبيبتي تمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعضُّ على عنّاب أناملها ببرد أسنانها !

أعني بالشاعر : ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيا فرحا نادبا متهللا ، مصغيا مناجيا ، ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم ، وأنواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة ، فيضيف بعمله هذا وترا فضيا إلى قيثارة اللغة ، وعودا طيبا إلى موقدها .

أما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين ، بدون ارادة ولا عاطفة ، فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية

الشعر – يا قوم – روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب ، أو تنهيدة تسرق العين مدامعها ، وأشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف ، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو تقليد كاذب !

* * *

« إنسان من الشرق »

وفي كتاب « عطر الأحباب » للأديب الكبير يحيى حقي نماذج فريدة للتعبير الأدبي في أجمل صوره وأعذب كلماته وأكثرها شفافية وعذوبة . يقول عن وجدان الانسان الشرقي العامر بالروحانية والايمان والبراءة :

هيهات أن تجد هذا الرّجل في الغرب ، أؤكد لك أني بحثت عنه لأني أحبه ، حيث عشت في الغرب ، فلم أعثر عليه . ذلك أن موطنه هو الشرق ، موطن الصحراء الممتدة ، والسماء الصافية ، والنجوم اللامعة المنتشرة ، والكون لحن هو خليط همسها جميعا . في الشرق لقيت هذا الرجل كثيرا حتى ألفته ، وجلست إلى جانبه مرارا فلم يحُس بوجودي ، بل كنت أنا هذا الرجل أحيانا وأنا في الشرق ، فلما انتقلت للغرب اشتقت أن أكونه وحاولت فأخفقت ، إنه الرجل الذي يخلو لنفسه ، تحسب أن ليس في مواجهة الطبيعة كلها أحدٌ غيره ، ظهره محنيٌ وكأنما فوقه أثقال ، ورأسه دانٍ إلى القلب كأنما ينصت لوشوشته ، وقد تكون في يده أحيانا عصا يخط بها على الأرض لغة لم تتكشف أبجديتُها بعد ، ولكنه يظل صامتا لا تدري أهو سارح الذهن في متاهات كثيفة ، أم هو مستغرق في التفكير ، اعترضته فكرة فسلّمت فعانقت فحضنت – كما نفعل في الشرق – فاستوعبت فليس منها فكاك ، وكلما طال الصمت اكتسى وجهه شيئا فشيئا بغلالة من الحزن ، حزن رقيق غير مفترس ، ليست له أنياب تنهش بل راحة يد كالقطيفة تربت بحنان . يدلُّ اطمئنان الرجل على أنه يجد لهذا الحزن الرقيق لذة تنتشي بها روحه ويتحلب لها فمه ، ثم فجأة

يمصمص بشفتيه ، ويهز رأسه ، وينطق لنفسه — فلا أحد معه — بكلمة واحدة ، هي تارة « دنيا » ، وتارة « حكم » جمع حكمة . أين كان ؟ ما هي مقدمات هذه الكلمة الواحدة ؟ لا أحد يدري .. بل لعله هو نفسه لا يدري ، ولو نصب لهذا الرجل تمثال يكون توأماً لكان خليقا أن يكون هو النبي الذي يطوف به في الشرق ركب أهل التصوف والحكم المرسلة ، فكلهم يصدرون أول الأمر عن هذا الاستبصار والشوق الرقيقْ ، فإذا خبّطهم الوجْد تفرّقوا كالطير المنطلق من محبس ، ولكلٍّ منهم صيحته المحترقة المجلجلة في الفضاء ، ولعلّ الكروان هو رمزهم حين يُسبّح ربه هاتفا : الملك لك ، وهو طير موطنه الشرق أيضا !

* * *

« زجاجة العطر »

من كتاب « أوراق الورد » الذي يضم مختارات من رسائلها ورسائله ، يقول مصطفى صادق الرافعي من مقطوعة بعنوان « زجاجة العطر » :

يا زجاجة العطر : اذهبي إليها ، وتعطري بمس يديها ، وكوني رسالة قلبي لديها ..

وهأنذا أنثر القبلات على جوانبك ، فمتى لمستك فضعي قبلتّي على بنانها ، وألقيها خفيةً ظاهرةً في مثل حُنوّ نظرتها وحنانها ، وألمسيها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها .

وهأنذا أصافحك ، فمتى أخذتْك في يدها فكوني لمسة الأشواق ..

وهأنذا أضمُّك إلى قلبي ، فمتى فتحتك فانثري عليها في معاني العطر لمسات العناق ..

أنت يا زجاجة العطر سبيكة عطر ، كلُّ موضعٍ منها يتأرّج ويتوهج ، وهي سبيكة جمال ، كلُّ موضعٍ فيها يستبي ويتصبّي .

وما ظهرت معانيك إلا أفعمت الهواء من حولك بالشذا ، ولا ظهرت معانيها إلا أفعمت القلوب من حولها بالحب .

أنت عندي أجمل أنثى في الطيب من نبات الزهر ، وهي عندي أجمل أنثى في الحب من بنات آدم ..

قولي لها يا زجاجة العطر إنّ شوق الأرواح العاشقة يحتاج دائما إلى تعبير جميل كجمالها ، بليغ كبلاغتها ، ينفذ إلى قلب الحبيب بقوة الحياة ، سواء رضي أم لم يرض ، وهذا الشوق النافذ كان الأصل الذي من أجله خلق العطر في الطبيعة ، فحيثما تسكب الجميلة قطرة من الطّيبِ على جسمها تُسكب في هذا الجسم أشواق وأشواق من حيث لا تدري .. ولهذا بعثتك .

وقولي لها : إنك اتساق بين الجمال والحب فحين تُهدى زجاجة العطر من محب إلى حبيبته ، فإنما هو يُهدي إليها الوسيلة التي تخلق حول جسمها الجميل الفاتن جوّ قلبه العاشق المفتون .

أيها العطر : لقد خرجت من أزهار جميلة ، وستعلم حين تسكبك هي على جسمها الفاتن أنك رجعتَ إلى أجمل من أزهارك ، وأنك أيها العطر كالمؤمنين ، تركوا الدنيا ولكنهم نالوا الجنة ونعيمها .

ثم يقول الرافعي :
الزمن كلّه موسيقى عند المحب ، ولماذا ؟
لصوت حبيبته .
والزمن كلّه ربيع في رأي عينيه .. والدليل ؟
ورد خدّيْها وشفتيها .
والزمن كلُّه جمالٌ في نفسه .. والبرهان ؟
كلها .. كلها !

• • •

عندما تبتسمين أشعر بحرارة أفكارك في دمي .

وفي تضرُّج وجنتيك ، لا أرى احمراراً ولا خجلا ولا حياء .. بل أرى قلبك يتكلم بلون خدَّيْك .. إنَّ للقلب أربع لغات يتكلم بها : واحدة منهن بالألوان في الوجه ، والثانية بالدلال في الجسم ، والثالثة في النظر بالمعاني ، والأخيرة وهي أسهلهن وأبلغهن تتكلم بكل ذلك في ابتسامة !

ومع ابتسامة الحب يأبى فم الحبيب أن يلفظ كلمةً لا يقبلها فم حبيبه .

يا لها فكرةً ملائكيةً مُعلقّة على فم !

* * *

« أي ربي »

دعاء عصري ، يتفجر من وجدان عالم أديب ، هو الدكتور أحمد زكي، في لغة عذبة صافية كأنها أقباس من الشعر المنثور ، وفي ثنايا الدعاء تلتمع خبرة العالم الأريب وفطرة الأديب المرهف ..

يقـــول :

أي ربي ..

أين أنت ، وكيف تكون ؟

خلقْتَنا وتواريْتَ عنا ، اختفيت عن أبصارٍ لنا وعن أسماع ، وقلت انظروني بالبصيرة إن عزّ البصر ، وانظروني بالفكر عن طريق العقل ، ولكنك أعطيتنا عقلاً يتلاشى كلما تعمق فيما ينظر فيه ، كالشمس تلقي أشعتها في البحر فلا تنير منه إلا ظَهْراً ، وتبقى على ظلماتها البطون .

فما ضرَّ لو أن العقل كان أطول ، ولو أنه كان أنفذ وأبصر .

وننظر إلى ما خلقت ، فنحس حركة وراء ثوب الطبيعة ، هذه التي خلقْتَ،

والحركة إن دلّت فهي تدل على موجود ، ولكن ما كنهه ! ما هويّته ! ما بدؤه ! ما انتهاؤه ! لسنا ندري ، ولا هو يريد أننا ندري .. وما كان أيسر عليه لو أنه أراد .

وجعلْتَ الجنة لمن يراك على قصر بصرٍ وقصر بصيرة ، وجعلْت النار . وقلت — تعاليت — إنّ الله غفار ، وهو يغفر الذنوب جميعا .

ثم يقول الدكتور أحمد زكي :

أي ربي ..
خلقت النار وخلقت النور .
وخلقت النور بارداً وخلقت النار حارة .. والأصل فيهما واحد .

ومن النور والنار خلقت الكهرباء ، ومن الكهرباء خلقت نارا وخلقت نورا ، أصول في الكون اختلفت مظاهرها ، واختلفت مخابرها ، والأصل واحد . وهو أصل من أصولك الأولى يا ربّ الأرض والسماء .

أي ربي

إن القوة لك ، والنصر منك والهدى . فاهْدنا يا ربّ من لدنك رشدا .

• • •

« كلمات قصار للعقاد »

عن الشعر : جوهره وحقيقته ونقده يقول العقاد :

— الشعر : حياة أو سلعة ؟
إنْ يكن حياةً فهو من الروح .
وإن يكن سلعة فهو من السوق .

— لكل شاعر كبير فلسفة للحياة ، أو فهمٌ لها على وجه من الوجوه ، وهذه

مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغراء ، والشاعر الطليق القدير هو الذي يريك القيود حيث لا تكون حرية ولا انطلاق .

ــ إنّ المحك الذي لا يخطىء في نقد الشعر هو إرجاعُه إلى مصدره ، فان كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ، ونفحات الأزاهر إلى عنصر العطر ، فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية .

ويقول العقاد :

ــ قد يحسدك الحاسد ليصبح نظيرك ، وقد يحسدك الحاسد لتصبح نظيره وهو ألأمُ الحاسدِيْن .

ــ قال أبو العلاء :

الناس للناس مــن بدوٍ وحاضرة
بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

ولو قال : « سادة » لما اختلف المقال ..

ــ إذا أحبك القوم مخدوعين فلا تفرح .

واذا كرهك القوم مخدوعين فلا تحزن .

بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات !

ــ التجارب لا تُقرأ في الكتب ، ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب .

ــ الجميل مظهر القدرة .. والجليل مظهر القوة ، والنفس تقابل القدرة بالاعجاب ، والقوة بالخشوع .

* * *

« أنت أنت الله »

ومن كلمات عامرة باليقين الصادق والايمان الغامر والروحانية المشرقة يقول الدكتور منصور فهمي :

إذا ما اتجه الفكر في السموات حيث انتشرت النجوم في الليل ، واذا ما كلّ البصر فيما لا نهاية له من الآفاق المظلمة ، وإذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل ، فإنك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، وتسمع صوتك في ذلك السكون ، وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة ، حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقة ، ويتحول السكون إلى نبرات مطربة تنبعث من كلّ صوت ، وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة لتقول ، أنت أنت الله !

وإذا ما وقعت العين على زهرة تتفتق في الأكمام ، أو تلاقت العين بعين يملؤها الحسن والابتسام ، وإذا ما أعجب المعجبون بجمال الفجر المتنفس ، وتغريد الطير المتربص ، وعاود الصدر انشراحه وملأ القلب ارتياحه ، إذ ذاك يشرق جبينك النوراني الجميل ، فنراك أنت أنت الله ..

فبينما يمس النفس من مظاهر العظمة ومظاهر الوُسعة ، ومظاهر الرحمة ومظاهر القدرة والقضاء ، ومظاهر الدوام والبقاء ، ومظاهر الجمال والجلال ، اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم والواسع والرحيم والقادر والدايم والجميل والجليل ، وأوتار القلوب تردد : أنت أنت الله ، أنت أنت الله !

* * *

« ما الكلمة ؟ »

وعن معنى الكلمة ، وحقيقة الشحنة التي تحملها الألفاظ والمفردات في لغتنا الجميلة تقول الأديبة الراحلة « مي » :

ما الكلمة ؟ الكلمة التي تُعيّن الحركة والاشارة والصوت واللون والانفعال. والكلمة التي تعني أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها ، ما هي ؟ وما سرُّ انتخابها — (أي ما سرُّ اختيار الأديب لها دون غيرها)

الأبجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة إلا بالكلام ، فما هي تلك القدرة المُعطاة للبعض ، ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاه وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائي ، والليل وعمقه وكواكبه والنفس وعجائب خفاياها ؟

كيف تنبض في الألفاظ المجرّدة الجامدة حياة سريعة مُتقدة بثورة الشعور وهيجان الغضب وأنين الشكوى ورنين النجاح والظفر ؟ لماذا تهتزُّ الألفاظ تارة كالأوتار وتولول طوراً كأمواج البحر العجاج وتهمس حينا همساً عجيباً كأنما هو منطلق من سحيق الذراري وملهم الآمال القصوى .

ثم تقول ميّ :

إن ذلك لسرٌّ تملّص من القواعد والنصوص وترفّع عن أن تلقيه الضمائر إلى الألسنة وهو كلُّ مقدرة الكاتب أو كلّ ضعفه .

• • •

رأي في البلاغة

سئل الأديب الراحل أحمد حسن الزيات — باعتباره رائداً لمدرسة حديثة في فن الأسلوب العربي — عن تعريفه للبلاغة العربية الجديدة ، فقال :

البلاغة التي أعنيها هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل ، لأن الكلام كائن حي روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلتَ بينهما أصبح الروح نفسا لا تتمثل والجسم جمادا لا يحس .

والأسلوب خَلْقٌ مستمر ، خَلْقُ الألفاظ بواسطة المعاني ، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ ، فليس هو المعنى وحده ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مُركّبٌ من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ، وتلك العناصر هي الأفكار والتصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة والحسنات المختلفة ، ويجب أن يتوفر في الأسلوب البليغ عنصر التلاؤم أو الموسيقية ، ويكون ذلك في الكلمة بائتلاف الحروف وتوافق الأصوات وحلاوة الجرس ، وفي الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقرات وحسن الإيقاع ، وسبيل ذلك المزاوجة بين الكلمات والجمل كقوله تعالى :

« وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم » .

فآتيناهما مثل وهديناهما ، والكتاب مثل الصراط ، والمستبين مثل المستقيم. ولا بأس أن ينتثر في خلال السياق قليل من السجع المطبوع في المواقف الشاعرية العاطفية .

* * *

وأسلوب في النقد والتذوق

في دراسته النقدية الممتعة عن الشاعر علي محمود طه ، يقول الناقد الراحل أنور المعداوي :

كان علي محمود طه ذلك الرجل الخبير بنفسية المرأة التي يدفعها الدلال إلى التمنع وهي راغبة ، وإلى التظاهر بالغفْلة وهي واعية ، حين يختفي الوجه المعبر عن حقيقتها وراء قناع .. مثل هذه المرأة ماذا يناسبها من حديث ؟

هنا تجد المحب الغزل حين يتخير الكلمة التي تكشف عن أهواء نفسها وكأنها المفتاح الذي يعالج كلَّ مغلق من الأبواب ، تقول : لا ، وهي لا تعنيها ، فيدرك أن منطق القلب غيرُ منطق اللسان ، وعندئذ ينبغي أن يوجه

الخطاب إلى العالم المستور قبل العالم المنظور ..

أسلوبٌ في لقاء المرأة يطالعك منه هذا النموذج الغنيّ في قصيدته « حديث قبلة » .. حيث يقول :

تسائلني حلوةُ المبسمِ :	متى أنت قبّلتني في فمي ؟
تحدّثتَ عني وعن قبلةٍ	فيا لك من كاذب ملهم !
فقلت أعابثها : بل نسيتِ	وفي الثغرِ كانت وفي المعصمِ
فإن تُنكريها .. فما حيلتي	وها هي ذي شعلةٌ في دمي
سلي شفتيكِ بما مسّتاه	من شفتيْ شاعر مغرمِ
ألم تُغمضي عندها ناظريْكِ	وبالرّاحتين .. ألم تحتمي
هي أنها نعمةٌ نلتها	ومن غير قصدٍ فلا تندمي
فإنْ شئتِ أرجعتُها ثانياً	مُضاعفةً للفم المنعمِ
فقالت : وغضّت بأهدابها	إذا كان حقّاً فلا تُحجمِ
سأغمض عينيَّ كي لا أراك	وما في صنيعك من مأثمِ
كأنك في الحُلم قبّلتني	فقلت : وأفديك أن تحلمي

ثم يقول أنور المعداوي :

أرأيت إلى هذا الحديث اللّبق الذي يعرف طريقه إلى القلب الأنثوي والعاطفة الأنثوية ؟ إنّك من وراء هذه اللمحات النفسية الخاطفة تستطيع أن تتمثل أكثر خطواته في ذلك الطريق .. كما تتمثل حقيقة الصوت بعد هدوء الضجيج في رجع صداه .

وما أشبه الرجل الخبير بالنساء بالرجل الخبير بالجواهر كلاهما قد اكتسب خبرته من كثرة العرْض وتعدد النماذج ووفْرة الفحص والمران ، حتّى ليدرك بالنظرة النفاذة والذوق اللمّاح شتى الفوارق بين كلّ معدنٍ مُزيّف وكل معدن أصيل .

ولقد تعددت النماذج الأنثوية في حياة علي محمود طه فتضخم رصيد فهمه للمعادن النفيسة ، ومن هنا أصبح عالم المرأة بالنسبة إليه كأي عالم آخر بالنسبة إلى رحّالةٍ أكثر من الطواف فتكشف له كلّ مجهول ..

هذا هو محمود طه وهذا هو مكان المرأة في حياته ، ترى هل كان يستطيع أن يبغضها بعد كل هذا ؟

أأبغض حـــواء وهـــــي التي عرفت الحنان لهــــا والرضا
وبــــــاع بهــــا آدم خلــــده ولو لم تكن لتمنّى القضا !!

* * *

الفصل الثامن

طرائف وأسرار من لغتنا الجميلة

« قل .. ولا تقـــل »

من الأخطاء الشائعة على ألسنة الناس وأقلامهم قولهم :

هذا أمر مصان

والصواب أن يقال : هذا أمر مصون

ويقولون : فرس مُقاد	والصواب : فرس مَقود
ويقولون : رجل مُهاب	والصواب : رجل مَهيب
ويقولون : ذهب مصاغ	والصواب : ذهب مَصوغ
ويقولون : هذه أموال مُجباة	والصواب : أموال مجبيّة ومجبوّة
ويقولون : أمر مَهول	والصواب : أمر هائل
ويقولون : حديث مستفاض	والصواب : حديث مستفيض
ويقولون : أمر مبغوض	والصواب : أمر مُبْغَضٌ
ويقولون : هب أنك فعلت	والصواب : هبْك فعلت
ويقولون : تفرّقت الآراء	والصواب : افترقت الآراء
ويقولون : قدْسية القضاء	والصواب : قداسة القضاء

ويقولون : هذا الشيء مباع ومقال ومصاغ والصواب : مَبيع ومَقول ومَصوغ
ويقولون : المعافاة من الرسوم والصواب : الإعفاء من الرسوم
ويقولون : قرأت الدعوتين (مثنى دعوى)، والصواب : قرأت الدعويَيْن
ويقولون : إشهار التصرفات والصواب : شَهْر التصرفات
ويقولون : خزينة والصواب : خزانة
ويقولون : خُطوبة والصواب : خِطْبة
ويقولون : أمر هام والصواب : أمر مهم
ويقولون : كافة الناس والصواب : الناس كافة
ويقولون : حرّمه من كذا والصواب : حرمه كذا
ويقولون : قابلته صدفة والصواب : قابلته مصادفة
ويقولون : خِصْم (في مجال المنازعات) والصواب : خَصْم — ومنه قولهم (أنت الخَصْم والحكم).
ويقولون : اعتذر عن الحضور والصواب : اعتذر عن عدم الحضور
ويقولون : خِلْسة والصواب : خُلْسة
ومنه قولهم (الخُلْسة سريعة الفوْت بطيئة العَوْد) والخُلْسة : هي الفُرصة أي ما يُختلس.
ويقولون : خِطّة والصواب : خُطّة
كما يقولون : لِعْبة والصواب : لُعْبة
ويقولون : ضرب به عَرْض الحائط والصواب : عُرْض الحائط
ومثلها : نظر إليه عن عُرْض، وكلّمه عن عُرْض.
ويؤنثون العازب بقولهم : عَزْباء والصواب : عازبة وعزبة
ويقولون : المُرْجان والصواب : المَرْجان
ويقولون : وهبتك كذا والصواب : وهبت لك كذا
ويقولون : المجلس الحَسْبي والصواب : المجلس الحِسْبي من الحسبة

ويقولون	والصواب
ويقولون : ما كان هذا في حسابي	والصواب : ما كان هذا في حُسْباني
ويقولون : أحفاد (لأبناء الأبناء)	والصواب : حَفَدة وحفداء
ويقولون : ولا يخفاكم كذا	والصواب : ولا يخفى عليكم كذا
ويقولون : داهمه الأمر	والصواب : دهمه الأمر
ويقولون : أمعنت النظر	والصواب : أمعنت في النظر
ويقولون : تحرّى عن الأمر	والصواب : تحرى الأمر
ويقولون : توافر على عمل كذا	والصواب : توفّر على عمل كـــذا (بمعنى صرف همه له ، أما توافر فمعناها : تكاثر)
ويقولون : هذا الأمر الغير معقول	والصواب : غير المعقول (دون أن تدخل ال على كلمة غير)

* * *

ويقولون	والصواب
ويقولون : عامود	والصواب : عمود
ويقولون : كاد أن يفعل كذا	والصواب : كاد يفعل كذا
ويقولون : التعضيد (بمعنى المعاونة)	والصواب : المعاضدة (ومثلهـــا المساعدة والمكاتفة : من العضد والساعد والكتف)
ويقولون : وينبغي عليك ألا تفعل كذا	والصواب : ولا ينبغي أن تفعل كذا (فالنفي إنما يدخل على ينبغي)
ويقولون : خارطة	والصواب : خريطة
ويقولون : ذهبنا سويا .	والصواب : ذهبنا معا (لأن سويا معناها : مستوٍ أي لا عيب فيه ، يقال : رزقني الله ولدا سويا : أي مستويا لا عيب به)

ويقولون : مُرفق به كذا ..والصواب : مُرافِقه كذا (من رافقه، أمامُرْفق فمن أرفق ورَفـَق بمعنى الرفق وهو ضدّ العنف) .

ويقولون : كـُلـِّفت بالأمر وهو مـُكلـّف بالأمر

والصواب : كلفته الأمر (يقول تعالى : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ..

ويقولون : لفت نظره إلى كذا

والصواب : وجه نظره إلى كذا أو نبهه الى كذا (لأن معنى لفت صرف ولا يليه « إلى » وإنما يليه « عن » فمعنى لفته عن رأيه صرفه عنه، وهناك من يمعنون في الخطأ فيقولون ألفته ويلفته ..)

ويقولون : يزورنا في كلّ آونة (ظنا منهم أن كلمة آونة للمفرد فيضيفون إليها كلمة كلّ ، مع أنّ آونة جمع أوان مثل زمان وأزمنة) .

والصواب : يزورنا في كلّ أوان

ويقولون : السكة الحديد

والصواب: سكة الحديد أو السكة الحديدية (لأن الوصف لا يكون جامدا)

ويقولون : هذا أمر مشين

والصواب: هذا أمر شائن (من شانه يشينه بمعنى عابه ضدّ زانه) .

* * *

من طرائف الأسماء

كان الأقدمون يقولون : لكل مسمّى من اسمه نصيب !

والشاعر يقول :

وقلمـــا أبصرت عيناك مـــن رجلٍ
إلاّ ومعناه في اسمٍ منه ، أو لقـــب

وكان العرب يتفاءلون بالاسْمِ الحسن ، ويتطيّرون من ضده ، وكانوا يقولون : إن من حق الولد على والده أن يختار له أمّاً كريمة، ويُسميّه اسماً حسناً ، ويعلمه القراءة والكتابة ، وإنما تطيّرت العرب من الغُراب للغرْبة، إذْ كان اسمُه مُشتقّاً منها .

وفي ذلك يقول أبو الشّيعي :

أشـاقك والليل مُلقِي الجِـران
غرابٌ ينوح على غصن بـانِ
وفي نَعباتِ الغرابِ اغـترابٌ وفي البانِ بَيْن بعيد البياني

وقد سمّي عبد المطلب بن هاشم حفيده محمداً رجاء أن يحمد في السماء والأرض وسمي أبو طالب بن عبد المطلب ولده عليّاً قائلاً :

سميتُه بعليٍّ ، كي يـدوم لـه
عزُّ العلاءِ ، وخيرُ العـزّ أدومه

ويقول ابن الرومي فيمن اسمه أبو الفضل :

أنت أبو الفضل ، وأنت ابنـهُ
فالفضل لا يعدُوكَ في كلِّ حال

ويقول المتنبي في « عليّ الحاجب » معلّلا تسميته بذلك ·

في رتبةٍ حجب الورى عن نيْلها
وعلا ، فسموّه عـليَّ الحاجب

وكان الرسول الكريم يحبُّ الفأل الحسن ..

يروون أنه لما قدم على المدينة نزل على رجل من الأنصار ، فصاح الرجل بغلاميه :

يا سالم ويا يسار

فقال الرسول الكريم : سَلِمَتْ لنا الدار في يُسرْ

وكان يُحبُّ الاسم الحسن ، يقول : من آتاه الله اسْماً حسناً ، ووجهاً حسناً ، وجعله في موضعٍ غير شائن له ، فهو من صفوة الله في خلقه ..

ويقول عمر بن الخطاب :

أحبّكُم إلينا أحسنُكم اسمْاً ، فإذا رأيناكم فأحسنكم منظراً ، فإذا اختبرْناكم فأحسنكم مخبراً .. ويروون أن عمر سأل رجلا — أراد أن يستعين به على عمل — عن اسمه

فقال الرّجل : ظالم بن سراقة

فقال عمر : ويْحك ، تظلم أنت ويسرق أبوك ، لا خير فيك !

ويقولون إنه لما فرغ المهلّب بن أبي صفرة من حرب الأزارقة وجّه إلى الحجّاج الثقفي رجلا يقال له ، مالك بن بشير ، فلما دخل الرجل على الحجاج قال له : ما اسمُكِ ؟ قال : مالك بن بشير .

فتهلل الحجاج وقال : مُلْكٌ وبشارة !

* * *

« أسرار من لغتنا الجميلة »

من أسرار لغتنا الجَميلة التعبير بالمفرد عن الجمع ، والتعبير بالجمع عن المفرد ، وغالباً ما يجيء هذا لغرضٍ بلاغي ، فيكون وقوعه في الكلام حلْيةً وتزيينا ..

فهم يقّولون : هي حسنة الوجنات

مع أن المرء ليس له إلا وجنتان اثنتان ، والوجنة ما ارتفع من الخدين

ويقول القدماء : هي حسنة اللبّات

والمرء له لبّة واحدة (اللبّة هي موضع القلادة من الصدر) .

يقول ذو الرمة :

برّاقةُ الجيد واللّبات واضحــة كأنها ظبيةٌ أفضى بها لَببُ

كذلك قالوا : هو واسع الأشداق

وللمرء شدْقٌ واحد ..

والعرب تقول : العين وتريد العينين ، مثل : أقرَّ اللهُ عينك ..

وفي القرآن الكريم : « كي تقرَّ عينها ولا تحزن »

« وقالت امرأة فرعون قُرَّةُ عينٍ لي ولك »

ومحجر العين هو ما دار بها وبدا من البرقع وجمْعه : محاجر ، وللإنسان محجران ، ولكن مليحا الهذلي يقول :

وشمّرت الجمال بكل خودٍ يفيض على محاجرها العبــير

ويقول مجنون ليلى :

ومما شجّاني أنها يوم ودَّعت تولّتْ وماء العين في الجفن حائر

فلمّا أعادت من بعيدٍ بنظــرة إليَّ التفاتا أسلمتْهُ المحاجرُ

فهو قد أفرد العينْ والجفن وجَمّع المحاجر ..

وفي إفراد العين والأذن يقول بشار بن برد :

يا قوم أذْني لبعض الحي عاشقةٌ

والأذْنُ تعشقُ قَبْلَ العينِ أحيانا

* * *

ويقولون : فلانٌ راسخ القدم في العلم

بدلا من : راسخ القدمين

وفلان قام على ساقه وحَسرَ عن يده

بمعنى : استعدَّ ، بدلا من : على ساقيْه وعن يديْه

وأعرتُ أذُناً صاغيةٍ وأرهفت أذني ورأيته رَأيَ العين

وكلُّهمُا بالإفراد بدلاً من التثنية ..

ويستعملون المفرد بدلا من الجمع فيقولون :

باتوا سامرا أي متسامرين

ويقول المتنبي :

قليلٌ عائدي سَقَم فؤادي   كثيرٌ حاسدي صَعْبٌ مرامي

بدلا من قوله : قليلٌ عُوَّادي ، كثيرٌ حسادي ..

ويستعملون الجمع بدلا من المثنى ، مثل :

فـلان شديـد المناكـب   أي المنكبين

ذهبتُ مشياً عـلى الأقدام   أي على القدمين

وكقول الشاعر :

إنمّا قد وضعْتُ كفي لأدري   أين حلّت سهامُ تلك العيون

أي : سهام تينك العينين .

ويقول « ابن النبيه المصري » في وصف محبوبه :

سُودٌ سوالفه لُعْس مراشفـه

نقشٌ نواظره ، خرْسٌ أساوره

فقد استعمل : سوالفه ومراشفه ونواظره وأساوره . وليس للمحبوب إلا سالفان ومرشفان وناظران وسوازان . .

وقد نستعمل الكلمة المفردة للواحد والجمع والمؤنث ، مثل :

هو صديقٌ   وهي صديقٌ   وهم صديقٌ

فيكون التعبير أوفر حظاً من البلاغة والجمال !

* * *

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٣٥٩ / ٩٩

I.S.B.N. 977 - 01 - 6212 - 4